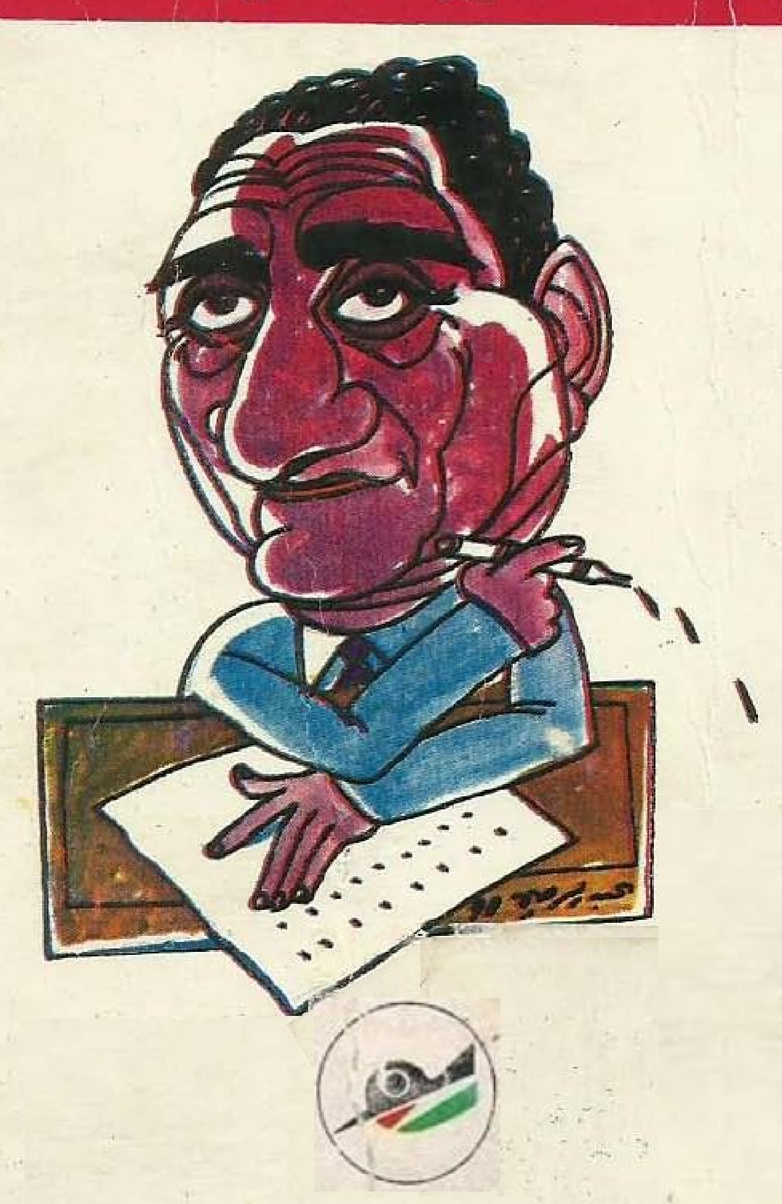
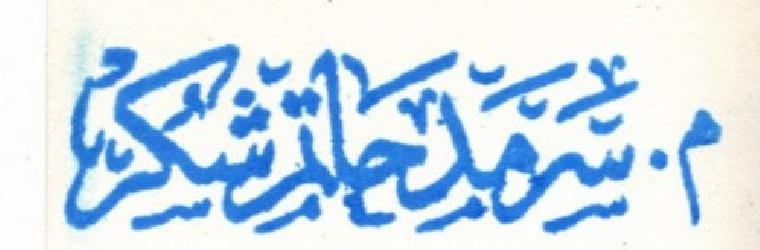
قلبي وعقلي وقلمي

عبد التواب يوسف

سيرة ذاتية





قلبي وعقلي وقلمي

عبد التواب يوسف

سيرة

ذاتية

دار ثقافة الأطفال

قلبي وعقلي وقلمي

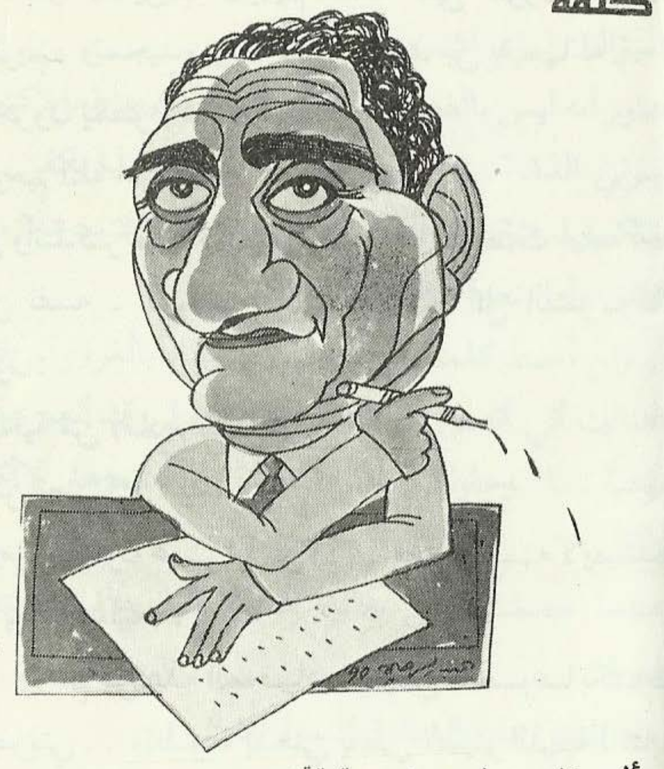
تأليف عبد التواب يوسف
الطبعة الاولى ١٩٩٠

الناشر: وزارة الثقافة والاعلام ـ دار ثقافة الاطفال
العراق ـ بغداد ص . ب ٨٠٤١
بريد ٨ شباط

المدير العام : فاروق سلوم
سكرتير التحرير: فاروق يوسف

قلبي
وعقلي
وقلمي

كلمة



سألت نفسيّ في حده حقيقة :

ـ من أكون لكي أكتب سيرة ذاتية؟ ماهدا الذي حققته لكي يعاني الناس قراءة هذا الذي سوف أخطه؟ هل لتجربتي قيمة تستحق الاهتمام؟!.

كثيرون سوف يقولون.

ـ هذا واحد يريد أن يقيم لنفسه على الورق حفلات تكريم، وتمجيد، ربما لأنه لم يجد من يقيمها له . .
وآخرون يمطون شفاههم، هامسين:
ـ رحم الله امرءاً عرفِ قدر نفسه . .
بل وأتذكر عبارة كان يقولها أبي اذا ماتحدّث أمامه أحدٌ عن نفسه ـ الموضوع المفضل عند كل البشر ـ كان يقول:
ـ تحية من «مادح نفسه» . .
ـ من تعني؟
ـ ومن يكون غير ابليس؟! . . مادح نفسه لايصدق ولايعتمد عليه . .

ورغم كل هذه المحاذير أراني مدفوعا بكتابة تجربتي . . وتطوف بذهني بعض السير الذاتية لكتابنا الكبار الذين لاأطاولهم قامة، وتمتد قائمة كتاب السيرة الذاتية، وقد احببت قراءتها، وشغفت بها، وبالذات فيما يروونه في صراحة وصدق عما واجهوه من صعوبات، أكثر مما اهتم لما حققوه من أمجاد . . في حين أومن أني لم أحقق الكثير، بل ربما لم أحقق شيئا

على الاطلاق!

والسؤال: لماذا اكتب هذا اذن؟!

اتصور أنه ليس بالضرورة أن أكون (نجماً) ساطعا لأكتب سيرتي الذاتية.. إني واحدٌ من الناس، وهذا يكفي.. قد تكون مثمرة حكايتي هذه.. وأنا اكتب هذا من منطلق «أما بنعمة ربك فحدث»..

ولن أخط كلمة فخر، ولست أحس بالغرور. كل ماهنالك أني أتصور أن الله سبحانه وتعالى قد أنعم علي بموهبة .ما وحاولت أن أنميها، وأستثمرها لاأكثر ولاأقل..

وعندما حصلت على جائزة الدولة لأول مرة، سألتني مذيعة:

- ماذا تعني هذه الجائزة بالنسبة لك؟

قلت: تعني أن الدولة تربت على كتفي، وتقول لي: أنت على الطريق الصحيح. واصل مسيرتك. لاأكثر ولاأقل!

ولست بذلك أنتقص من قيمة مابذلت وماعملت.. وأنا - بحمد الله - راضٍ عنه، معتز به. أديته في تَفَان

واتصور ايضا أني أديته في إتقان . . وأني سرت على الطريق المستقيم، وأن ماحدث كان وراءه توفيقٌ من الله . .

وكثيرون طالبوني بهذا العمل، ومنهم أبنائي، وكنت دائماً أضحك وأضاحكهم بأنه مازال في العمر بقية . . باذن الله ـ وأسألهم ألا يستعجلوني ذلك، إلا اذا كانوا يرون أنه لم يبق لي الكثير، أوليس عندي ماأعطيه، وينفون الأمرين بشدة، ويؤكدون أن هذا العمل مني واجب، وضرورة، وأنه سوف يكون من أهم كتاباتي لأنه سيحوي عصارة حياة وتجربة عمر، اتصف صاحبه بالصدق والبساطة والصراحة . . وكنت أشكر لهم كلماتهم، وأرجيء الامر، الى أن وجدت أن من المناسب أن يصدر مثل هذا الكتاب، اذ ليس في نيتي أن اؤجله أكثر من ذلك لأكتب مثل ميخائيل نعيمة (سبعون)، وقد كان يمكنه ان يكتبه (تسعون) إذ أنه تجاوزها . .

(توفي رحمه الله في عمر يقترب من المائة)

وأعرف عن يقين أن العمر لايقاس بالسنوات فقط .

فقد كنت في الثامنة عشرة من عمري حين كنت أرد على «بـريـد القلوب» في مجلة «روز اليـوسف»، ويـومها نصحت صاحب رسالة في مثل عمري «أن يبحث عن الشيكولاته لا عن الحب»!، وقد جاء لينهال بالشتائم علينا، واستدعاني احسان عبد القدوس يومها ليسألني عن سني، وضحك وأنا اقول له: إني شيخ عجوز في الثامنة عشرة!، وقد استطعت بذلك أن أصل الى تحرير هذا الباب! ولست أدري لماذا كنت يومها أحس بوطأة السنين، أكثر مما أحسها اليوم بعد أن تضاعفت أكثر من ثلاث مرات!..

إن حساب العمر بمقياس السنين وحده أمر لايستقيم.. ويجدرُ بنا أنِ نراجع أنفسنا بشأنه، والأحداث مقياس أدق في تقديري، لذلك كانوا يحسبونه بها «ولد الرسول صلى الله عليه وسلم في عام الفيل».. و.. أعوام الاحداث هي التي يؤرخ بها ويُؤبَهُ لها في حياة البشر، أما توالي السنين والاعوام فيجدر بنا ألا نقف عنده طويلا.

ولن أتستر وراء ضمير الغائب، بل سوف أتكلم

بضميـري، وضميـر المتكلم، وسـوف أحـدث قرائي. كأصـدقـائي. . بالصدق والحب. . بالبساطة والحرارة، لااستهدف إلا سرد التجربة في حد ذاتها، لذلك وصلت بالحكايات الى حد السذاجة!، وبودي أن تغفروها لي، وان تسـامحـوني على التفصيـلات الـواردة في ثنـايـا الـذكـريـات، اذ لا اتصـور أنهـا بلا دلالات، وإن كنت لأدرك حقيقة قيمتها، أنتم وحدكم القادرون على التقاطها. .

وكـان في مقـدوري أن أبدأ مع المرحلة التي خضت فيها تجربة الكتابة وبالذات للاطفال، ولكن كيف يمكن أن أفعـل هذا دون أن أتحـدث عن طفـولتي ذاتها، وهي النبـع والاصـل في تصـوري؟! ثم كيف لاأتحـدث عن تجـربتي كاتبا؟!. . ولااظنني سوف اتطرق الى تجربتي السياسيه، فهي في تقديري محدودة، وليس لدي أسرار اذيعهـا، واكشف عنهـا النقـاب، لأنني قد قررت منـذ تفتحت عينـاي على العمـل السياسي ألا أكون بطلا في مواجهـة السلطـة، وألا أكـون بطـلا اذا ماجلست على مقـاعـدهـا، اذ أدركت أن البطـولـة الحقيقيـة تكمن

بداخلنا، وتتمثل في رفض الاغراءات و«الرشاوي» المقنعة وغير المقنعة، وعدم قبول الوعيد والتهديد، فلاذهب المعز ولاسيفه لهما عندي مكانة، كنت مع السلطة - فكرا وعملا - وماستفدت من ذلك قليلا ولاكثيرا، واختلفت معها حتى باعدت مابيني وبينها، وماستطاعت يدها أن تطولني.. لاأدري السر في ذلك الحرص الذي الزمت به نفسي بقوة.. لم تستبد بي الرغبة في السلطة وكان سعيي اليها ضئيلا، وتركزت جهودي في:

قلمي.. شريفا نظيفا عفيفا، لاأتاجر فيه، ولامساومة عليه.

لقد جعلت هذه السيرة الذاتية في ثلاثة أقسام:

القسم الاول: طفولتي

القسم الثاني: تجربتي كاتبا

القسم الثالث: تجربتي.. كاتبا للاطفال

طفولتي



طفولة الانسان أطول من طفولة كل المخلوقات، ليُحسن اعداده للحياة. .

وكاتب الاطفال مخلوق له خصوصيته الناشئة عن أنه «يتقمص» شخصية الصغير حين يخاطبه، ويحاول أن يتبسط، ويرجع الى «النبع» يستقي منه مادته، وموضوعاته وهو خلال ذلك يفتش على كلمات داخلة في قاموس الطفل واضعا نصب عينيه ميوله ورغباته، احتياجاته ودوافعه، راجيا ان يكون «ممتعا» وهذه هي طفولتي. . .

احببت الحكايات

سماعا وقراءة في سن مبكرة

أحببت الحكايات مثل كل أطفال الدنيا. . وأتصور أن حبي لها كان أكبر. . ولم تكن أمي تعرف القراءة، لذلك لم تكن لديها ماتحكيه لي، وانغمس أبي في القراءات الدينية، وهو أيضا لم يقم برواية الحكايات لي. . لكنني وجدت عند عمي الذي لايعرف القراءة والكتابة الكثير، فقد كان شغوفا بألف ليلة وليلة، وكان يعرف بعضا من حكاياتها، وكان له صديق يقرأها عليه. . وعرف حكايات أخرى التقطها، وأعاد روايتها لي، بل لقد روى لي قصة ذات مساء، وكتبتها مع الصباح، لتقدمها لي الاذاعة في اليوم التالي، واستمع اليها معي في ذهول. . كان عنوان هذه القصة «الطلمبة». .

ومع السنة الاولى الابتدائية بدأت أقرأ. .

كنا نحسن القراءة قبل الالتحاق بالمدرسة، وأقبلت على القراءة بشكل طيب. . تعرفت على مطبعة «العم توفيق». . ومنها كنت اقتني صباح السبت من كل اسبوع (قصتي) وهي سلسلة ضخمة من الحكايات، كان

يكتبهـا معلم للغـة العـربيـة، من ابنـاء بني سويف، لم تتحقق له الا شهـرة محليـة رغم قصصـه الكثيـرة. . هو المـرحـوم الاستـاذ/ مصطفى محمـد ابـراهيم. . وقـد احببت كتـابـاتـه، وكنت اقـرا القصة في الحصة الاولى اثنـاء الـدرس، مهمـا كان نوعـه. . وأعيـد قراءتها عقب عودتي للبيت. .

ولاأدري إذا كنت قد قرأت قصص كل هذه السلسلة أم لا، لكنني داومت عليهـا طويـلا، قبل أن أتعرف على سلسلة أخرى هي «المكتبة المدرسية» التي كتبها سعيد العريان وأمين دويدار ومحمود زهران، وقد هزتني قصص هذه المكتبـة، بل كنت أقـرأ الـواحـدة منها عدة مرات، ومـازلت اذكـر بكل الحب «مدمس اكسفورد» وغيرها من حكايات هذه المجموعة التي طبعتها دار المعارف عدة مرات. .

وظهـرت في نفس الفتـرة مجموعة أو سلسلة قصصية كان صاحبهـا يوقعهـا باسم (ابن السلطان) كانت تحكي حكـايـات شعبية، الكثير منها مترجم، وقد همت بها في هذه السن المبكـرة، واقبلت عليهـا في لهفـة شديدة.

ولم التق بهـا بعـد أن كبـرت ، ولم اعـرف صاحبهـا وان كانت اللحظـات التي عشتهـا معهـا مازال لها في نفسي مكانتها ، اذ هي حكايات شعبية عالمية كانت زادا رائعا لخيالي !

وكـانت ترد الى مكتبـة المـدرسـة مجـلات . قرأت الكثيـر منهـا ، ولكنها لم تستوقفني ، ورأيت نفسي افضل الكتب عليها . . وكان رائعا من مدرسة النيل الابتدائية أن جعلت في كل حجـرة دراسيـة مكتبـة ، نأتي لها بالكتب من بيـوتنـا ونتبـادل قراءتهـا ، وقـد التهمت كل ماأتى به زملائي وقـرأت بالكامل مكتبتنا ونحن في الصف الرابع الابتدائي . ولي صورة وأنا في الثانية الابتدائية عضوا في جمعيـة المطـالعـة والمحـاضـرات ، ويبدولي أن ميولي الثقافية قد بدأت مبكرة !

واذكر حدثين كبيرين في تلك الفترة . .

كان مصروفي نصف القرش كل يومين . . ولم يكن ذلك قليلا اذ كانت القوة الشرائية للمليم كبيرة . . فهو يشتري بيضـة . . وكـانت (قصتي) التي اشتـريتها اسبوعيا ثمنها نصف القـرش ، آخـذه من أبي صبـاح السبت ، وأظـل

قابضاً يدي عليه، لأأضعه في جيبي، الى أن أصل الى «العم توفيق»، فأفتح يدي ويلتقط (التعريفة) منها، وأذكره وهو يلتفت الى ورائه ليسحب لي نسخة من الكتاب يعطيني اياها وبسمة طيبة تطل من على وجهه. . وذات يوم فتحت يدي واذا بها فارغة، وتسمرت في مكاني، تكاد الدموع تطفر من عيني، بل لعلها جالت فيهما، وتهيأت للانصراف، واذا بالرجل يستوقفني، فقد عرفني من كثرة ترددي عليه، وقال لي:

ـ خذ القصة، وهات ثمنها غدا!

قلت له: لااستطيع ذلك. . مصروفي نصف القرش كل يومين. .

وضحك الرجل، وهو يقول:

ـ هاتها بعد الغد. . عدا الأحد، وانت تعرف أننا لانعمل خلاله. .

وربما كانت هذه المرة الاولى التي أتنبه فيها الى أن «العم توفيق» مسيحي، وقد كنا نعيش في مدينتنا هذه لانفرق بين مسيحي ومسلم. . لذلك لم أجد صعوبة قط في ان اكتب كتابي «الهلال والصليب» الذي وزع منه

خلال واحدة من الازمات مايزيد على عشرة آلاف نسخة في اسبوع واحد!

والحادثة الثانية كانت وأنا في الصف الرابع . .

قررت علينا الوزارة قصة بالانجليزية عنوانها (أطفال الغابة الجديدة) . . وكان ناظر المدرسة ـ المرحوم زكي جاد شحاته ـ هو الذي يدرس لنا بنفسه اللغة الانجليزية . . يقرأ لنا القصة التي تروي حكاية سبعة أطفال فقدوا أباهم ، وتولى عجوز في الغابة رعايتهم . وفجأة مات هذا العجوز . . واذا بي أنفجر بالبكاء ، قلقاً على الأطفال ، واذا بذلك يثير صخباً وضحكاً في كل أرجاء حجرة الدراسة ، ورحت اتطلع اليهم في ذهول من بين سحب الدموع التي تجمعت في عيني . . وأقبل الاستاذ يحاول أن يخفف من انفعالي وتأثري ، ولست أنسى أن من بين ماقيل لي يومها :

ـ هذه مجرد حكاية . .

ولكنني كنت حتى ذلك الحين ـ ١١ سنة ـ أرفض ان أفرق مابين الخيال والحقيقة ، وأحسست بشعور غامر تجاه هؤلاء الايتام ، الذين سيتضاعف يتمهم بوفاة

راعيهم. . وكنت شديد التأثر بحكايات اليتم، اذ كان أبي يعمل في «دار الايتام» و«معهد اليتيمات»، ويحدثني بين الحين والآخر عن ظروفهم القاسية، الى حد أني تصورت ان المرء لكي ينجح يجب ان يكون «يتيما» مثل الرسول صلى الله عليه وسلم. . وقد فقدت ابي بعد تخرجي في الجامعة ببضعة شهور، ورأيتني انا اليتيم الذي يحتاج العطف والحنان في حاجة الى ان يغدقهما على يتيمات ثلاث وأم لاتعرف الطريق الى الشارع!

وبدأت أقرأ «الروايات البوليسية» في هذه السن المبكرة. . لاأدري كيف بدأ التقائي بها في روايات الجيب للمرحوم «عمر عبد العزيز أمين»، واقبلت اقبالا منقطع النظير على «ارسين لوبين»، ثم تعرفت على «شارلوك هولمز». . و«روكامبول» وغير ذلك من أعمال كانت تستغرقني الى درجة انسى معها الطعام والشراب. . وكثيرا ماتجمع أبناء الحي من حولي يطلبون مني أن أروى لهم ماقرأت، فنجلس الى الرصيف، وكلهم آذان صاغية لما أحكيه. . ولكنني سرعان

مانفضت يدي منها . .

وبدأ صديقي «فوميل لبيب» يشاركني القراءة . . وكان أصغر مني بسنة واحدة . . وتعرفنا في ذلك الحين على «العم حنا» وكان له دكان صغير يبيع فيه الكتب القديمة، ويؤجرها بعد أن يدفع القاريء تأمينا . . وعرفت وفوميل طريقنا اليه خاصة في اجازة الصيف، وكنت قد بدأت دراستي الثانوية، وبذلت مجهودا كبيرا من أجل ان يكون مصروفي (نصف القرش) يوميا، واستجابت الاسرة على مضض . . وعصر كل يوم كنت اذهب وفوميل الى العم حنا، ونختار كتابيْن، ونعود مسرعيْن يقرأ كل منا كتابه على مصباح الغاز،
ومع الصباح نتبادل الكتابين، وعصراً نذهب للرجل لنعيدهما وندفع القرش ونأخذ كتابيْن جديديْن . . واكتشفنا بعد حين أن الرجل أدرك تبادلنا للكتب ولم يضق بذلك، فقد كنا نعيدها سليمة، وفي الموعد المحدد، وقد تعاطف مع شغفنا الشديد بالقراءة في هذه السن المبكرة . .

ثم عرفتُ طريقي الى مكتبة البلدية . .

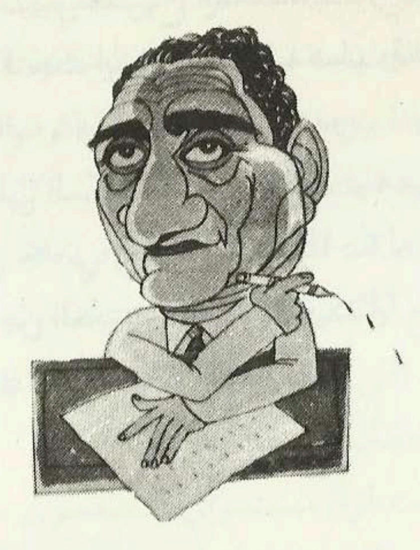
كانت في بناية فاخرة، في الطابق الثالث، وأذكر قاعاتها الفسيحة، والاعمدة الرخامية المستديرة التي تقف شامخة بين موائد القراءة.. وأذكر نوافذها الكبيرة، التي تسكب الضوء على المكان.. كانت واحدة من سلسلة مكتبات اقامها الانجليز في بلادنا، لالتثقيفنا، بل للترويج للكتب البريطانية، وزيادة توزيعها وانتشارها في البلاد التي استعمروها.. وكانت كتبها تتحدث عن بريطانيا العظمى وأمجادها..

كما كانت فوق مستواي العمري، لكنني قرأت ماجدولين والنظرات والعبرات للمنفلوطي، كما قرأت آلام فرتر لجوتة، و«رفائيل» عن لامرتين.. وقرأت عشرات الكتب في هذا المكان الانيق النظيف..

وكان أمين المكتبة شيخاً معمماً، صديقاً لأبي.. وفي كل يوم من أيام الاجازة الصيفية يصل الى المكتبة ليجدني قد جلست على السلم الرخامي البارد في انتظاره.. ويبدو أني كنت أصغر قاريء تردد على مكتبته، وحاول أن يساعدني على قدر مايستطيع وأن ضاق بوصولي مبكرا، وانصرافي متأخرا، فما كان منه

يوما الا ان سلمني مفتاح المكتبة. . واصبح يأتي ليجدني قد فتحت ابوابها ونوافذها، وقمت ببعض أعمال النظافة، وجلست أقرأ في هدوء. . بل وأساعد المترددين على المكتبة فيما يرغبون فيه من كتب. . واذكر أن أبي جاءني يوما، وكانت مفاجأة له أن وجدني «المسئول» عن المكتبة. . واستعار كتابا. . ولم يكن مسموحا للاطفال بالاستعارة الخارجية!

مرحلة ماقبل الدراسة الابتدائية



غزيرة هي ذكريات طفولتي . . اغترف منها الكثير . . لدرجة تجعلني لاأكاد أصدق مايقولونه من أن «المرء يخرج من طفولته ولايعود اليها أبداً»، اذ انني اكاد اعيشها وأعايشها، وما من مرة كتبت فيها برنامج «عندما كنت في مثل سنكم» إلا ووجدت في طفولتي نبعا لاينضب. . فقط افتش في زوايا ذهني، واقلب الماضي، واذا بي امام لقطة تصلح لأي موضوع اخترته، كأنما كانت طفولتي شاسعة كمحيط، واسعة كبحر، دافقة كنهر. . بل تكاد ذاكرتي تعود بي الى سن

ماقبل الثالثة، وتحفل بشريط احداث كثيرة وكبيرة . .

«وكان ابي معلما»، وأصبح ناظر مدرسة الزامية في واحدة من قرى محافظة بني سويف . . وكانت أمي أمية، لاتقرأ ولاتكتب . . وقد ولدتني بعد طفلين سبقاني : احسان ومحمد، وجاء من بعدي عبد الوهاب، وفقدتْهم جميعا . . ولدت في «شنرا» مركز «الفشن» بمحافظة بني سويف وهي لاتبعد عن القرية التي ولد بها طه حسين الا بضعة كيلومترات قليلة . .

وسافرت بي أمي ـ كما قيل لي ـ بعد مولدي بما لايزيد على أربعين يوما . . ولم انتبه الى نفسي الا في تلك القرية التي عمل بها أبي ناظراً للمدرسة . . وقبل أن التحق بها كان يصطحبني اليها لاشارك الاطفال لعبهم، والطريف أنه لم يدخلني الى حجرة الدراسة الا وأنا في السادسة من العمر، كأنما ادرك بحسه التربوي أن هذه هي السن المناسبة للبدء في التعلم.

ومازلت اذكر الكثير عن هذه القرية، واسمها (ننا) مركز (ببا) . . اذكر بيتنا . . كان في الطابق الثاني ويتكون من حجرتين، وتمتد من أمامهما مساحة فسيحة، ويسكن

أصحاب البيت في الطابق الارضي . . وأمام الدار أرض فضاء تمتد الى ترعة، تترامى من بعدها الحقول الخضراء التي نراها من النافذة . . والى اليسار كان بيت شيخ الخفر وامامه تكعيبة عنب كان أبي يحب الجلوس تحتها . . واذكر الطريق الطويل الى المدرسة وقد قطعته اليها كثيرا بعد ان انتظمت في الدراسة، وكنت أمر بضريح شيخ ، اقرأ له الفاتحة في كل مرة . . وقرب المدرسة كان بيت العمدة، وكان صديقا لأبي، ويتردد كثيرا عليه لجلسات تطول . .

وأذكر حادثين كبيرين وقعا اثناء تلك الفترة :

وقع حادث قتل في القرية، فوصل إليها «حكمدار» المحافظة . . وهو منصب كبير وخطير، كان يشغله في ذلك الحين أبن عم أمي «خالي عثمان بك» وبعد ان أنهى مهمته الثقيلة جاء لزيارتنا في بيتنا، وكان ذلك شيئا رائعا أعلى من مركزنا الاجتماعي في القرية، فنحن اقارب الحكمدار! . . (وحدث بعد سنوات ان قاطعه أبي، لأنه كتب الينا رسالة على الآله الكاتبة واعتبر ابي ذلك اهانة، الى أن اعتذر له خالي عن ذلك) . .

كانت الاوامر صارمة . لاطعام ولاشراب في المدرسة لكن المدرسين بحاجة الى كوب من الشاي يجدد نشاطهم . أتى الفراش بالموقد والاكواب وابريق الشاي . . وذات يوم (داهم) المفتش المدرسة . . كان يفتش على كل شيء . . انزعج الفراش . . حمل أدوات الشاي ولم يجد مكانا يخفيها فيه غير (زير الماء) . . ولكن المفتش خلال جولته رغب في ان يعرف درجة نقاء الماء ونظافته فرفع الغطاء، واذا به يجد موقد الغاز والاكواب وابريق الشاي في قاع الماء! . ووجه الى ابي عبارة قاسية، فما كان من والدي الا ان ترك المدرسة وغادرها الى البيت، بعد ان قال له بالفصحى:

- لقد رأينا مثلك كثيرا، فافعل ماشئت!

وجاء المفتش الى بيتنا، وتصالح مع ابي . . وكم رددت هذه العبارة حرفيا وأنا في هذه السن المبكرة، وكم استخدمتها على مدى العمر!

وُلدت لي شقيقة في هذه القرية، اسماها ابي «بثينة» . . وقد عانت المسكينة كثيرا في طفولتها من لين العظام، الامر الذي لم تشفَ منه على مدى عمرها

القصير. كانت ـ كما يقولون في القرية ـ «صاحبه مرض» . وقد أتى لها أبي بخادمة اسمها «نعيمة» ، بقيت معنا منذ ذلك الحين ولمدة سبعة عشر عاما الى ان رحل ابي عن الدنيا . . وكنا نحسن معاملتها : كانت تجلس لتتناول طعامها معنا ، كما كان ابي يشتري لها نفس القماش الذي يشتريه لاخوتي ! ، حتى لقد ظنها كثيرون اختا لنا . . وكان أجرها في الشهر في ذلك الحين خمسة قروش ! ، وقد يذهل البعض لذلك ، لكن لو انهم علموا أن ايجار منزلنا لم يكن يزيد على عشرين قرشا ، لأدركوا كم كانت النقود قليلة وغالية . . وكان حضرة الناظر لايتقاضى مرتبا أكثر من ثلاثة جنيهات ! . .

ودخلت المدرسة التي كنت الهو من حولها ، وانتظمت في السنة الاولى . . وكان المعلمون يعاملونني على قدم المساواة مع جميع أطفال المدرسة ، فلا فارق بيني وبينهم لأني ابن حضرة الناظر ، ولست أذكر من هؤلاء المعلمين أحدا . . لكنني اذكر أنهم كانوا يداعبونني كثيرا بعد الخروج من حجرة الدراسة . . وفي هذه المدرسة عرفت أن ابي يحمل الى مكتبه فيها دواة

حبـر من الـبيت، ليكتب به رسـائله الخـاصـة، لان استخدام نقطة من حبر المدرسة حرام!، وكان ابي يقوم بجـوار النظـارة بعمل واحد من المعلمين، فالمدرسة بها أربعـة صفـوف، وثلاثة مدرسين لاأكثر. . وما كان هناك من يقـوم بالسكـرتـاريـة أو الاعمال الادارية. . كان ابي والمعلمـون يتحملون العبء كامـلا. . ولست انسى يوم حدث أن رمـدت عينا طفـل. . كانت هنـاك صيـدليـة صغيـرة أخـذ منهـا المعلم زجـاجـة لم يقـرأ ماعليها. . ووضـع نقطـتين منهـا في عيني الطفـل الـذي أطلق صرخـات مدويـة. . واضطـروا لان يسارعوا بغسل عينيه بالماء. . واكتشف المعلم انه قد اتى بزجاجة صبغة اليود!،

ولم ينم ليلتهـا قلقـا. . ومـع الصبـاح جاء الطفل مفتوح العينين، سليم البصـر، يسألـه أن يكرر وضع القطرة في عينيه رغم كل آلامها لأنها شفته!!

وكـان النـاس في هذه القـرية يحبون ابي حبا جما، وكـان اخـواه يأتيـان لزيـارتنـا. . واحـد منهمـا يأتي من المدينة، اذ كان يعمل مدرسا بها، والثاني كان يأتي من

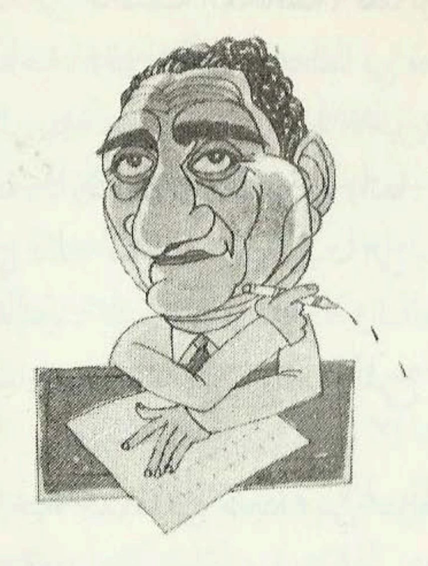
قريتنا، وكان لايحسن القراءة والكتابة، وذهب يوما لصلاة العصر في المسجد، فأقسموا عليه ـ لانه شقيق الشيخ يوسف ـ الناظر والمتفقه في الدين ـ ان يصلي بهم، وقد اعتذر لهم بشدة لانه قرر منذ وقت طويل ألا يصلي بالناس اماما!، واذا بهم عقب الصلاة يسألونه أن يلقي درسا دينيا!، وكاد يغمي عليه، ولكنه تخلص منهم بلباقة، وأرجأهم الى مابعد صلاة العشاء.. ولم يدخل المسجد بعدها إلا برفقة ابي الذي كان يحسن الأمرين: إذ يؤم الناس للصلاة، ويلقي الدروس الدينية في بلاغة وبساطة يفهمها الفلاحون، لذلك كانوا يستريحون الى حديثه ويجدون فيه متعة كبيرة..

ولست انسى تلك السيارة العتيقة، التي نستأجرها مع بداية اجازة الصيف لكي تنقلنا الى قريتنا.. وكنا ندفعها الى داخل مركب صغير تعبر بنا (بحر يوسف) الذي يمتد مابين اسيوط والفيوم قرب الصحراء الغربية.. وكانت السيارة الوحيدة التي تدخل قريتنا من العام الى العام ويأتي الاطفال ليروا عربة تسير بلا حصان، ويذهلون لذلك.. ثم أذكر السيارة التي نقلتنا

من القـريـة الى عاصمـة المحافظة، فقد ترك ابي موقعه كنـاظـر مدرسة، وقبل ان يعمل معلما في معهد للايتام، لكي يلحقني بالمـدرسـة الابتـدائية الاميرية في عاصمة المحـافظـة. . وكـان وداع الناس لنا رائعا. . اذ اصطف الاطفال في ذلك اليوم من باب البيت الى باب المدرسة وراحـوا يحيـوننـا بالتصفيق والـدعـاء والـدموع، الى ان غابت السيارة عن اعينهم، ونحن نلوح لهم في ود وحب. .

وبدأنا حياة جديدة في مدينة «بني سويف».

عرفت الدستور في سن مبكر من العمر



في ارشيف الاذاعة المصرية عدد كبير من البرامج عن الدستور منها «١٥ مارس» و«دستور ٢٣» و«حياتنا النيابيه» و«هذا دستورنا»، «وبعد عام».. «ومضى عامان» بعض هذه البرامج ترجم الى لغات أجنبية واذيع من محطاتها.. وكلها من تأليفي.. لأنها من وحي حادثة في صباي مسرحها بني سويف!

وكلما وقع في بلادنا حدث دستوري أحس أن شارع جسر البحر في بني سويف يشدني اليه، ويقفز الى ذاكرتي، ويملأ على مخيلتي.. وأعيش لحظات طويلة

مع «عم عبد الرحيم» العربجي، رحمه الله، ومع بيته الصغير النظيف الذي مازال قائما الى اليوم، لاأعرف من سكانه أحداً، ولكن كلما مررت به وجدت واجدة من العربات الكارو تحرس الباب! . .

وقد حدث ذلك يوم أن الغت الثورة «دستور الملكية»، وأعلنت دستور ١١ فبراير سنة ١٩٥٣ المؤقت وأحسست بهذا الحدث احساسا عميقا يختلف كثيرا عن احساس من حولي، وقد ادركت منه أننا مقبلون على تغيير جذري شامل في سياستنا واتجاهاتنا. . وكانت تلك الخطوة بداية الطريق. . ويومها تذكرت «عم عبد الرحيم» جيدا!، وتساءلت:

- كم كان عم عبد الرحيم مستعدا لأن يدفع من أجل اليوم، وقد دفع دما غزيرا من أجل هذا الدستور. . الذي نلغيه اليوم؟ . . لاشك في انه كان مستعدا لدفع عمره!

. واعلنت الجمهورية.

ثم اعلن دستور في ١٦ يناير سنة ١٩٥٦، ووقفنا في الصفوف نستفتي في الدستور ذاته، وفي شخص رئيس الجمهورية. . وأحسست يومها ان هذه الصفوف قد

كلفتنا دماء غزيرة عزيزة، وشعرت بكفاح الشعب يتجسد في هذه الاقلام من الرصاص، وهي أقوى من الرصاص حين تغلن مشيئة الشعب وارادته الحقه.. إنه يوافق على الدستور ويؤيد اختيار ابن الشعب، رئيسه للجمهورية.. وفي ذلك اليوم كنت اتلفت في الصفوف فلا أجد «عم عبد الرحيم».. ولكني رأيت في الكل «عم عبد الرحيم»!

تذكرت عم عبد الرحيم في هذين اليومين الخالدين وتذكرت شارع جسر البحر. انها «حدوتة» صغيرة اذكرها بخيال طفل تجاوز السادسة من عمره يومئذ، وقف في شرفة بيت عمر عبد الرحيم العربجي بشارع جسر البحر في بني سويف، يودع أباه المدرس وهو في طريقه الى مدرسته، ويوصيه ألا ينسى ان يعود بحاجة حلوة، وتحاول الام ان تبعده عن سور الشرفة، ولكنه تعلق به في اصرار غريب، يريد أن يتطلع منه الى الناس مع اشراقة الصباح، وهم غادون رائحون.. ويحب ان يراقب عم عبد الرحيم صاحب البيت، وصاحب العربة الكارو، وهو يحمل البرسيم الى حماره، ويعده لكفاح

اليــوم من اجــل لقمــة العيش . . ولا ينسى «عم عبــد الـرحيم» ، تحية الصغير الذي يناديه من الشرفة ، ويشفع تحياته بدعوات طيبات صادرات من قلب صاف حنون . .

وتدور الحياة . .

ويختلف ذلك اليوم عن بقية ايام عام ١٩٣٥ ، اذ يدهش الـصبي الصغيـر وهـو يرى شارع جسـر البحـر يغص بالشبـاب ، ويمتليء بالطلبـة ، وهم يزحفون ، وهتافاتهم ترعـد وتـزأر ويهتـز لهـا الافق . . كان المنظـر فريـدا . . الجمـوع تهـدر ، وقـد اعتلى واحـد اكتاف زملائه ، يعلو صوتـه ليفـرش فوق الطـريق هتـافـا صاخبا عميقا ، يتردد صداه ، والنــاس كل النـاس . . خرجـوا الى الشـرفـات والنـوافـذ ، حتى أمـه التي لم يرها قط تقف في الشرفة ، اللهم الا لتجذبه الى الداخل ، وقفت بجانبه غافلة عنه ، تتطلع الى الهاتفين ، وتبحث بينهم عن عم الصبي ، عم صغيـر السن يشرف الاب على تعليمه وتربيته ، وهو الآن في كنفهـا بعيـدا عن أمه ، لذلك ترعاه بقلبها وعينيها . وهي في بحثهـا عنـه الان كأنما تبحث عن قطرة في بحر

تتـدفق أمـواجـه كأنهـا الشلالات! ، وكان الصبي سعيدا سعـادة غامـرة بمـا يجـري ويحـدث ، وقـد أمسك بسور الشرفة يهزها ويصرخ ، ويهتف مع الهاتفين ، بكل أعماقه . .

- يسقط هول ابن التول (أي يسقط هور ابن التور) .

وجـاءت التفـاتـة من الام اليه ، وضحكت في اعجاب ، وهي لاتفهم كلماته ، ولا كلمات الهاتفين في الطريق! . وفجأة طرق البـاب ، وعـاد العم الصغيـر عبـد الجـواد ، والقى بكتبـه بســرعـة ، وجـرى الى البـاب من جديـد وحاولت والدة الصبي الصغير أن تحوله بينه وبين الخروج . .

وانطلق عبـد الجـواد مع البحـر الـزاخر ، وعند الباب شاهـد الصبي الصغيـر عم عبـد الـرحيم العربجي يفك حمـاره من العـربة . . لاعمل اليوم اذن . . ورآه يسير مع «عبـد الجـواد افندي» التلميذ بالمدرسة الثانوية وذابا في الزحام ، ولكن الصبي يقسم لأمه انه رأى عمه ، وعم عبد الرحيم وسط الزحام ، وان الطلاب قد حملوا عبد الجواد افنـدي مرة ، وعم عبد الرحيم مرة أخرى . . وكان صوت

عم الرحيم مدويا وهو يصرخ:
- ليسقط هور.. عاش الدستور!
ورأى الصبي راكبي الخيل من الجنود وقد اقبلوا.. كانوا يحافظون على النظام ومعهم عشرات من الجنود كثيرا ماتسوا أنفسهم وهتفوا مع الهاتفين..
وفجأة.. رأى الصبي حركة غير عادية، صرخات ليست هتافات منتظمة، والصفوف تختلط، ورصاصات تئز في الهواء، وهراوات ضخمة تعلو وتهبط لتفرق هذه الجموع المحتشدة، واحجار وطوب تشق الطريق، وتشج الرءوس.. وجذبته أمه الى الداخل وأغلقت النافذة.. ودخلا، ليعيشا فترة إنتظار قاتلة.. انتظار الاب، والعم التلميذ.. وعم عبد الرحيم!..
وعاد الاب، ومعه العم.. عادا معا، وكانت الفرحة!.. وفي كلمات قصيرة ادركت الام أن الاب قد ذهب الى قسم البوليس لكي يخرج شقيقه الطالب - العم الصغير - فقد امسك به البوليس وهو يتزعم مجموعة من الطلاب، واستدعوا شقيقه ليضمن انه سيخلد الى الهدوء.. وكان الاب حين استدعوه يلقي خطابا حماسيا

ملتهبا في فناء المدرسة. وعرف الصبي الصغير حكاية هذه المظاهرات. . عرف أنها من أجل الدستور. . الدستور الذي ينظم طريقة حكم الوطن، ويحقق ارادة الشعب!. . وعرف أن صامويل هور وزير خارجية انجلترا قد ادلى بتصريح يقول فيه ان الدستور الجديد ثوب فضفاض على جسم هذه الامة لانه يمنحها حرية وحقوقا فوق ماتستطيع ان تتقبل!. . ولقنه الشعب المصري درسا عميقا. . لقد أعلنها صريحة: نحن نريد هذا الدستور. . ثم من أنت أيها الدخيل؟ مادورك؟ مادخلك في دستور ينظم طريقنا في حكمنا لبلادنا؟. .

وتذكر الصبي الصغير وسط هذه الاحاديث، تذكر فجأة «عم عبد الرحيم». . ودونما كلمة انطلق يجري الى الباب، يفتحه والنداءات تتصاعد من ورائه تسأله الى اين يذهب، فلا يعتني الصغير بالرد بل يهبط الدرج قفزا، ويسأل:

- أين عم عبد الرحيم؟. . أين عم عبد الرحيم؟. .

لم يكن عم عبد الرحيم العربجي قد عاد. . ومازالت عربته رابضة أمام الباب، وحماره مربوطا الى

نافـذة الـدور الاول ، وأسـرته في قلق وقلقهم يتزايد كلما مالت الشمس نحـو الغـروب . . ونـزل الاب ، والعم . . واسـرة عم عبـد الـرحيم . وجـارهم البقـال الى البلدة يتجولون فيها ليسألوا عنه . . وكان الصبي الصغير قد أصر على ان يصطحب الاب معه في جولته . . وكانت مفاجأة قاسية له حين قاده ابوه الى المستشفى ، وكانت المفاجأة حين وجد عم عبد الرحيم ملقى في أحد أركانها المظلمة مصـابـا ، وكـانت المفـاجأة فوق طاقتـه حين رأى وراءه جنـديـا يحـرسـه حتى لايهـرب ، لانـه مقبوض عليه . . وبكى الصبي بكـاء مريـرا . . ولم يغـادر المستشفى الا بعـد أن ظلوا يجـذبـونـه جذبـا شديدا لفترة طويلة ، وهو يصـرخ ويضـرب الارض بقـدميه ، ولايريد أن يترك العم عبـد الرحيم للجندي ، ويرغب في أن يصطحبه للبيت ، من اجـل أولاده ، وأحفـاده ، وعـربتـه وحمـاره . . انه لم يفعل شيئا لكي يضربوه كل ماهناك إنه هتف مع الهاتفين :

- يسقط هور . . ابن التور . .

وهو نفسه ، أي الصبي الصغير قد هتف هذا الهتاف

من الشرفة ولكنه نفس الشيء، واصرارنا عليه لن يقل ولن نتحول عنه، ولو سقطنا كلنا مثل عم عبد الرحيم! . .

. . وعادت القافلة، دون عم عبد الرحيم، لتنتظر اياما قبل ان يفرج عنه، وقبل أن يعود الى بيته . . وايام أخرى قبل ان يفرج عن دستور ٢٣، ويعود ليكون دستورا لوطننا دستورا مجيدا، عبثت به يد الاستبداد والملكية، فعاشت بلادنا حياة سياسية مضطربة . . إلى ان الغى الدستور ذاته، والغيت الايدي العابثة به واليوم، اتذكر عم عبد الرحيم وهويقف فوق عربته الكارووهي تنطلق بأقصى سرعة، وهو يصفق بيديه، والفرحة تغمر وجهه الذي مازالت الضمادات تغطيه، ويهتف:

ـ سقط هور. . ابن التور. .

ورجع الدستور! ورجع الدستور!

وتمضي السنون، واذكر شارع جسر البحر. . الشارع الابيض. . والجموع تزحف فيه وتهدر. . لتلونه الدماء باللون الاحمر القاني . .

وأقف لأتساءل:

- هل هذه الذكريات «أبيض أو هي «أسود» أيام مدينتي؟!

لست أشك، بل أنا على يقين، أنها أبيض وأنقى الصفحات، ولولا ذلك اليوم لما كان «اليوم»!.. يوم ثورتنا من أجل الدستور رصيد ضخم في بنك الثورة التي احتضنت أروع مافي ماضينا، وبنت من أجل حاضرنا وسهرت لمستقبلنا!

مرحلة الدراسة في المدارس الاولية



وتنقلنا بين عدة بيوت، الى ان استأجر ابي بيتا كبيرا، ولم يكن لدينا من الاثاث مايكفيه.. الطابق الارضي للضيوف، والثاني لنا.. وانضم عمي - مدرس الرياضيات - الينا، يسكن معنا، وكانت امي قد ربته منذ كان في السادسة من عمره.. وكانت «نعيمة» خادمتنا تقيم معنا، وتعاون أمي في عملها الشاق بالبيت..

وبدأت أتردد على مدرسة «القاضي» أو «الشيخ مسعود»، وهو اسم ناظرها.. وكثير من مدارسنا في مصر تحمل اسم الناظر اذا كان قد بقى فيها طويلا ونجح في

عمله، وفي تثبيت اسمــه وجهــده. . ولم أتعـرف على الكثيـر من انحاء المدينة. . فقط طريقي الى المدرسة، وكـان يمـر بمعهـد الايتام الذي «كان أبي معلما» فيه. . كمـا يمـر على المقهى الـذي يلعب فيـه الشطرنج، في ميـدان المـديـريـة، وكـان هذا المقهى يحمـل اسم (النـادي). . والميـدان الـذي امـامـه فسيـح، وبه متنزه جميـل، يقف فيـه كشـك المـوسيقى شامخا. . وكانت موسيقـات الشـرطـة تعـزف فيه، ويقف الناس ليستمعوا اليهم في شغف ولهفـة. . وكثيـرا مااصطحبني ابي اليـه وسمعت فيه موسيقى عالمية ومصرية!

ولست أذكـر عن هذه المدرسة الكثير. . كانت قريبة من مكتب البـريد، وعربات المطافي، وقد شهدت فيها شيئا جديدا علي، وهو «المظاهرات». . فقد كان طلاب المـدارس الثـانـويـة والصنـاعيـة يخـرجون هاتفين ضد الاحتــلال والاستعمــار، ويأتـون الينـا ليخـرجـونـا من حجرات الدراسة!

ومازال محفورا في ذهني ذلك اليوم الذي مضيت فيه الى المدرسة لأجد أبوابها مغلقة، وقالوا لنا:

ـ عودوا الى بيوتكم . . جلالة الملك فؤاد مات !
وعدت للبيت أبكي بحرارة ، وأنا اتساءل :
ـ ماذا نفعل بدون ملك ؟!
وكم ضحك عمي من أعماق قلبه ، وكذلك ابي ، فما كانت تربطنا بجلالته اية صلة من أي لون ، ولم يكن موضع احترام الكبار فضلا عن الاطفال ، وراح كل منهما يحاول تهدئتي وتكفيف دموعي . . وكان مما قالاه لي ان ملكا صغيرا شابا سوف يجلس من بعده على العرش . . وفرحت فرحا غامرا لذلك ، واسترحت كثيرا خاصة عندما بدأت صوره تظهر في الصحف وتعلق من فوق الجدران . . وماكنت اعلم أني بعد عشر سنوات سوف أطأ صورته هذه بحذائي وأقدامي ، هاتفا بسقوطه ! ، بعد أن أنزلنا نحن طلبة جامعة القاهرة هذه الصورة من فوق رأس مدير الجامعة وحطمنا زجاجها وتطاير ليجرحنا . وعندما امسكوا بنا كان عقوبة كل منا تزيد بقدر جرحه
وانتقلنا من بناء هذه المدرسة الى آخر اقرب الى بيتنا . . وظلت صلتي بهذه المدرسة وثيقة رغم مغادرتي لها عقب انتهائي من السنة الثانية ، لكي أمتحن في

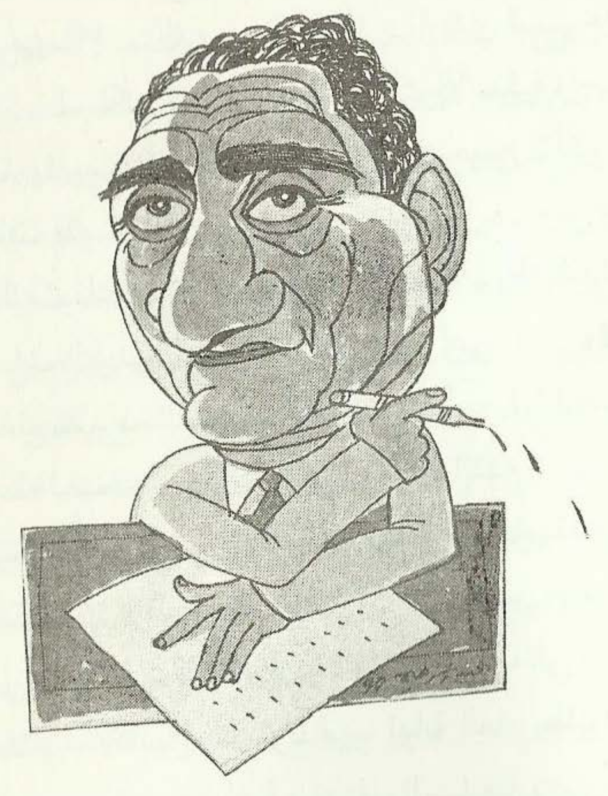
الخط والاملاء، والحساب بقواعده الاربعة: الجمع والطرح والضرب والقسمة، من أجل الالتحاق بالسّنة الاولى الابتدائية.. وقد اجتزت هذا الامتحان، لكنني لم أوفق في الكشف الطبي، وطالبوني بضرورة وضع نظارات على عيني، ورفضت الاسرة ذلك، وحملوني على الالتحاق بمدرسة النيل (الاهلية) التي كان عمي يعمل فيها مدرسا.. وكان لابد من كشف طبي آخر، وكانت المفاجأة أن الرجل الذي وقف من ورائي يضع يده على واحدة من عيني راح بأصبعه يلقنني في أي اتجاه تكون فتحة العلامات التي لاأكاد اراها!!

وقد اشترى لي ابي اول بدلة لبستها في حياتي اذ كانت المدرسة الاولية تكتفي بأن نمضي اليها وقد لبسنا جلبابا ومن فوقه (جاكيت)، ونضع فوق رؤوسنا ذلك الطربوش الاحمر القرنفلي، بزره الاسود!، وكان لي «ابن خال» ثري سيلتحق بالمدرسة الابتدائية الاميرية في نفس العام، واشترى له والده بدلة، ما ان ارتداها حتى صاح فيه ابوه:

- انا فرحان بك، لكنني والله خائف منك!

لقـد كان أهلنـا يخـافـون لابسي البـدل . . هم اما جنود بريطـانيون يحتلون بلادنا ويسرقون محاصيلنا ويستبدون بنـا . . اوجنـود شرطـة يأتمـرون بأمرهم ويذيقوننا الويل والعــذاب . . اوهم وكــلاء نيابـة يحققـون مع النـاس ويلقون بهم وراء القضبان ، أومحضرون يحجزون على ممتـلكـاتـهم ، او صرافـون يحصلون منهم الامـوال والضـرائب . . وكـان المعلمـون معممين . . لذلك كان لابس البـدلـة دائمـا يأخـذ ولايعطي ، يحكم ويتحكم ، لذلـك كرههـا النـاس ، وخـافـوهـا ، وتمنوا على الله ألا يروهـا ، الى حد أن خالي خاف من ابنـه الطفـل وعمـره ثمـاني سنـوات حين لبس البـدلـه ، ليلتحق بالمـدرسـة الابتـدائيـة الاميـريـة بمصـزوفات قدرها عشرة جنيهات سنويا . . وكم هي باهظة!

سنوات خصبة في المدرسة الابتدائية



اذكر وهج سنوات الدراسة الابتدائية الاربع، وجمالها، بل وروعتها أذكرها بتفاصيلها، بل بحجرات الدراسة واين كانت، بل واين كنت أجلس، ومعلميها في كافة الصفوف، عاما بعد عام. . لقد قضيت فيها من العمر مابين الثامنة الى الثانية عشرة. . كانت سنوات

طفولة حقة، وتفتح على الحياة. . هل أحكي يوما من
ايامي فيها؟!. . انه يبدأ مبكرا. . ارتدي ثيابي على
عجل. . لم نكن نختار، اذ لم نملك الا بدلة واحدة
نذهب بها يوميا. . وحذاء واحدا. . وقميصين لا أكثر. .
ونختطف طعام الافطار في لهفة، ونجري. . ومن عند
باب البيت نلتقط حجرا صغيرا، أصحبه شوطا بأقدامي
حتى باب المدرسة وأتركه قريبا، لكي أعود به. . وكثيرا
ماكنّا نجد باب المدرسة موصدا، فندُقّه بقوة ليصحوا
العم طه ليفتحه، كي نمارس لغبة كرة القدم. . وكانت
الكرة لاتتجاوز جوربا قديما لامهاتنا حشوناه بقطع من
القماش. . ونظل نلعب الى ان يدق جرس الحصة
الاولى. . كنا نتوقف عن كرة القدم عندما يمتليء الفناء
بالزملاء. . وكان المدرسون قرب نهاية العام يطلبون منا
الحضور مبكرين ساعة، أي في السابعة، من أجل
حصة اضافية يعطوننا اياها بلا مقابل. . وكنا نصل في
السادسة لنأخذ حصتنا من اللعب. . ولقد كان معلمونا
لايعطوننا دروسا فحسب، بل يعطوننا ذوب نفوسهم
وعقولهم وقلوبهم في اخلاص لامثيل له. . «فتحي

افنـدي» كان مدرساً للغـة العـربيـة تارة وللحسـاب تارة أخـرى. . «حـافظ افندي مدرس اللغة الانجليزية». . و «عبد الجواد افندي» ـ عمي ـ يدرس لنا الحساب وما كان يسمى «الاشيـاء والصحـة»، أي العلوم بلغـة ايـامنـا الآن. . وكـل منهم لي معـه ذكريات. . ولم تكن نعرف شيئاً اسمـه استـذكار الدروس، كنا نعتمد بالكامل على مانسمعـه ونتـابعـه في حجرة الدراسة، ونقوم في المنزل بعمـل «الـواجب»، وهـو لايتجاوز حل بعض مسـائـل الحسـاب، وحفـظ عدد من كلمـات اللغـة الانجليـزية بمعنـاهـا باللغـة العـربية. . ولم يكن المعلم يفقد ثانية واحـدة من الحصـة، وكانوا يتنافسون على حصة المعلم الغائب. . وقلما يغيب احدهم الا لأمر جلل. . ولم يكن راتب الـواحـد منهم يتجاوز ثلاثة او أربعة جنيهات. . اذ كانت المـدرسة (أهلية) و (بمصروفات)، أي انها كانت (قطـاع خاص)!، . . ونـاظرها زكي جاد شحاته ـ واحد ممن لهم نصيب في رأس المال ـ وكان يعمل معلما للغة الانجليزية في السنة الرابعة، والاخيرة. .

اقبلت على دروسي في نهم، وكنت متفوقا بلا جهد

من جانبي، فقط اتابع المعلمين، وكنا ثلاثين تلميذا في الفصل، وكنت دائماً بين الخمسة الاوائل، لكنني لم أكن الاول قط!، فقد كان اللعب يستأثر بالكثير من وقتي داخل المدرسة وخارجها.. تعلمت كرة السلة، وكرة المائدة، وأشتركت في (القسم المخصوص) الذي هو للجري والوثب والتدرب على العقلة والمتوازيين.. واشتركت في فريق الاشبال والكشافة.. وبقدر ماكنت أقبع ثابتاً في مكاني اثناء الدراسة، كنت حركة دائبة بعد انتهائها.. كالنحلة.. وكنا نأخد حصصاً ثلاث، ثم فسحة لمدة ربع ساعة بعدها نعود لحصتين، ثم نمضي الى بيوتنا لتناول طعام الغذاء ونرجع لحصص ثلاث أخرى.. وكنا ندعي أن بيوتنا بعيدة، ونحمل الطعام معنا الى المدرسة - في أواني تسمى «العمود» أرز وخضار ولحم كل في إناء منفصل، والاواني الثلاث متصلة ببعضها بحامل نمسكها به - وكنا نلتهم طعامنا في لحظات ثم نبدأ في الجري واللعب، وقد نصل الى بيوتنا عدة مرات خلال ذلك - وهي التي قلنا انها بعيدة وأن الوقت لايكفي للذهاب اليها لتناول طعام الغذاء..

وكثيـرا ماكـان معلمـونـا يستبقـوننـا في المدرسة بعد الحصـة الثـامنـة من أجـل حصة اضافية . . وفي الصف الثـالث والـرابـع اضـافـوا حصتين في المسـاء تسمى «السهرة» وبدون مقابل، وبحسبة بسيطة اكتشف اننا في اليوم الواحد كنا نقضي في حجرة الدراسة لأقل من سبع ساعـات ونصف السـاعـة . . بمعـدل سنوي يتجـاوز مايقضيـه الطفـل اليـابـاني والامـريكي الان وهو ١١٨٣ ساعة (طفلنا اليوم لاتزيد عدد ساعاته في المدرسة على ٦٠ سـاعـة لينـافس الطفـل الامـريكي واليـابـاني والاسـرائيلي !) . . وكـانت ساعـاتنـا محتشـدة بالعلم والمعـرفـة . . حتى حصص الرسم والاشغال اليدوية كنا نمـارس فيهـا ذلـك بجدية شديدة، بجانب حصة فلاحة البسـاتين . . وكـانت هناك قطعة أرض صغيرة في جانب من الفناء لها سور مرتفع كنا نمارس فيها الفلاحة، ولكل منا نبتته الضئيلة التي يرعاها ويهتم بها كأنها عينيه! . .

وأستطيـع ان افيض في الحـديث عن هذه المـرحلة من عمري، فقد كان فيها ألف حكاية وحكاية . . زميلي كان يسـرق مني كتـاب اللغـة الانجليـزية الصغير الذي

يحمـل الكلمـات ومعـانيهـا، فقدت هذا الكتاب عشرة مرات!، وكـان ثمنه قرشين، وكم عوقبت على ذلك الى ان اكتشفت الـزميـل الذي كان يغار من تفوقي، وأراد أن يعرقلني.. (وقد فقدت طربوشي القرنفلي الاحمر مرتين)..

مرة وضعتـه بديـلاً عن قائم مرمى كرة القدم، ونسيته خلال اللعب، وبعد أن انتهت المباراة لم أعثر عليه للابد..

ومـرة اختطفـه ولـد يركب دراجـة وجـريت وراءه ولم ألحق به، ونجح ابي في معرفة اللص، لاأذكر كيف لكنه استعاده لي..

ولم أحبب هذا الطـربـوش منذ طفولتي، مع أن أول يوم لبسته فيه كان بمثابة (عيد) كبير. لكنه كان يعرقلني عن الجـري، فاضطـر الى ان اكبسـه في رأسي. كمـا كان زره الاسـود لايستقـر في خلفيتـه، بل يدور من حوله فأحيـانـا يصبـح وجهي قفـا.. وأحيـانـا يكون لليمين، ويتصـور البعض ذلـك لونـاً من الاناقة، ويضربنا معلمنا على ذلـك.. وكم انقطـع هذا الـزر، وكـذلـك ربـاط

الحذاء، وكان هذا مكلفاً. . وقد وصفت الطربوش في موضوع انشاء على أنه أصيص زرع مقلوب رأسا على عقب. . وكم ضحك معلمي وزملائي. . هل كان ضيقي منه لأن أطفال الاحياء الشعبية والقرى حين يروننا نضع الطربوش فوق رؤوسنا يزفوننا. .

ـ «افندي طز اكل اللحمة وساب الرز!!»

ربما. .

وكنت أصغر لاعب في فريق المدرسة لكرة السلة وكنا نلاعب المدارس الاخرى، ورغم قصر قامتي مقارنة بزملائي كنت احرز اهدافا كثيرة. . وذات مرة حمل ابناء الفيوم الدبابيس لكي يشكوني بها، فخرجت من الملعب صارخا باكيا، وعاقبهم الحكم!. . وكنت في طفولتي ـ ومازلت ـ سريع الألفة مع الناس، اصادقهم وهم يصادقونني بعد أول لقاء قصير. . ولست اريد ان اضع قائمة طويلة من اسماء لاتعني الكثير بالنسبة للقاريء، بينما اصحابها تقاسمت معهم الحلو والمر في الحياة. . اولهم «أسماعيل عثمان» ـ الذي صار كبيرا لمهندسي البحرية المصرية ـ تعارفنا في مدرسة القاضي

وافترقنا في الدراسة الابتدائية، وتلاقينا في المرحلة الثانوية. . وثانيهما «د. مصطفى حمامي» - الذي أصبح وكيل أول وزارة الصحة - وتعارفنا في السنة الاولى الثانوية. . . في الدراسة الابتدائية كان هناك كثيرون احببتهم واحبوني، منهم «د. جان خليل عقل» وكان والده مصورا بارعا، واهداني صورة احتفظ بها منذ قرابة نصف القرن!، والحياة تفرق بين الناس دائما. .

وكان لي في الحي أصدقاء: فوميل لبيب - الذي اصبح مديرا لتحرير المصور - اما الباقون فقد استقروا في بني سويف، وصاروا من نجوم مجتمعها. . وكانوا يشكلون فريق كرة القدم معي ومن بينهم صفوت انيس وفاروق السنباطي ووديع رياض. . وكان منهم (سمير غانم) نجم الكوميديا ولم نكن نشركه معنا في اللعب لاننا - تصوروا - كنا نستثقل ظله!، ولانه كان أصغر منا في السن!. .

واذا كانت روايتي (خيال الحقل) تمثل حياتي في القرية، وتشكل شخصياتها أقاربي وأصدقائي فيها، فان (العم نعناع) ترسم صورة لأصحابي في المدينة - بني

سويف ـ وفي المدرسة . .

وكنا نذهب في رحلة مدرسية مرتين في العام : واحدة الى قرية «سدس الامراء» وكانت مملوكة للخاصة الملكية ، وفيها يزرع نوع من قصب السكر مازال مذاقه الحلو على لساني ، كان اسمه (خد الجميل) . . وكانت المسافة بين المدينة وهذه القرية ثلاثين كيلومترا ، نقطعها في غناء وضحك ، ونرجع ونحن نردد : «سالمة ياسلامة رحنا وجينا بالسلامة» ! ! . . وكانت الرحلة الثانية الى الفيوم ، وهي على مسافة خمسين كيلومترا ، وفيها رأيت بحيرة قارون ، وآثار قصر اللابرنت ـ ثلاثة آلاف غرفة فوق الارض ومثلها تحت الارض من عهد رمسيس الثاني ! . .

وقد زرنا قرية «باروط البقر» التي قيل انها كانت مزرعة لتربية البقر أيام الفراعنة ، وكانت ألبانها تسكب في انابيب من الفخار مدفونة في باطن الارض ، تصل مابين المزرعة وقصر فرعون في العاصة : اهناسيا . . انها نفس نظرية نقل البترول في الانابيب الآن .

عموما كانت حياة المدينة أقرب لحياة القرية . اذ

نقلها ابي الى بيتنا، وصارت هي محور اهتمامنا، بينما كانت علاقتنا بالمدينة متواضعة، وفي نطاق أصدقاء أبي وزملائي في المدرسة، ولعب كرة القدم، وقراءة الكتب التي كانت متوفرة بكثير عما في القرية.

وخلال هذه المرحلة رزقنا بشقيقتين.. وتنقلنا بين اكثر من بيت.. الى أن استقر بنا المقام في بيت قرب ميدان مولد النبي، احمل له ذكريات كثيرة.

وحصلت على الشهادة الابتدائية ـ لاول سنة تجري في مناطق تعليمية.. كانت منطقتنا تضم بني سويف والفيوم والمنيا، وعدد الناجحين فيها يتجاوزون الالفين وخمسمائة، وكان ترتيبي السابع والخمسين بينهم ـ وكان الاول والثاني من مدرستنا.. لكنهما لم يوفقا فيما بعد في مواصلة الدراسة.. واحد لانحراف سلوكه اخلاقيا، والثاني تعثر خلال المرحلة الثانوية ربما لظروف مادية واجتماعية.

الكرة الشراب
والملاعب الرمادية الترابية



لست أدري متى استرعت كرة القدم انتباهي ، لكنني مثل كل الاطفال كثيرا ماكنت اشاهد الاطفال يلعبونها في شوارع مدينتي ، واشارك بعضا ممن في سن مبكرة في اللعب بها . بل لقد كنت مع الصبح اصطحب «طوبة» صغيرة، أظل اضربها بقدمي حتى أصل بها الى

المدرسة، وأضعها بجانب الحائط لكي اعود بها الى البيت بنفس الطريقة. . وكانت لنا قرابة النصف ساعة صباح كل يوم نمارس فيها لعب الكرة الى ان يحين وقت الحصة الاولى، وعندما كانوا يطلبون منا ان نأتي مبكرين لحصة اضافية مبكرة كنا نصل للمدرسة قبلها بنصف ساعة لنوقظ البواب كي يفتح لنا باب المدرسة ونمارس لعبتنا الحبيبة في فناء المدرسة.

وكونت فريقا لكرة القدم من اصدقاء الشارع. . وأسميناه فريق (العلم المصري) وفي ميدان مولد النبي كان هناك فريق آخر يحمل اسم فريق النيل. . وضممتهما في فريق واحد قوي، اثبت وجوده في مجال الكرة الشراب. . وعندما كبرنا قليلا استطعنا ان نفوز على فريق (الملك الصالح)، وكان يتكون من عدد من اللاعبين المعروفين في المدينة، لذلك بزغ نجمنا، وسعت الفرق لكي نلاعبها. . وضممت زميلين من اصدقاء المدرسة هما الدكتور مصطفى حمامي واللواء مهندس اسماعيل عثمان!

وقد يدهش البعض حين يعرف ان أغلب اللاعبين

كانوا يلعبون حفاة الاقدام، فما كان لدى أهلنا من المال مايمكنهم من شراء اكثر من زوج واحد من الاحذية في السنة، كنا نحافظ عليه ليتحمل اقدامنا التي تتعامل يوميا مع حجر نضربه بأحذيتنا حتى نصل المدرسة ونعود به..

وتفوقت مدرستنا في كرة القدم، وكان ناظرها رائعا في تشجيع الفريق.. حين يفوز في مباراة الجمعة يتحول المربع الذي نقف فيه الى صفوف متوازية تتطلع الى شرفة ارتفاعها لايزيد على المتر، ويستدعي فريق كرة القدم ليقدم له التهنئة، ونصفق لهم، ويعقب على المباراة:. وعلى مائدة الغداء يزين مائدتهم بالورد ويتناول معهم الطعام، الذي يتوسطه ديك رومي كامل!

وظللنا في الشارع والميدان نمارس اللعب بالكرة «الشراب»، وكنا نأخذ جوارب امهاتنا لنحشوها بالقماش، ونلعب بها، وكنت بارعا في المرور من المنافسين، والتعاون مع زملائي، وسجلت أهدافا كثيرة رائعة!

وكنت اتمنى لو امتلكت كرة قدم «أبنوبة»!، كان

ثمنها خمسة عشر قرشا لاأكثر، وكانت معلقة لدى متجر، اتطلع اليها كلما مررت به . . ومازلت اتطلع الى مكانها بنفس الطريقة بعد مرور خمسين عاما! ، اذ غادرت المدينة الصغيرة الى القاهرة دون ان أحظى بها . .

وهذه صورة من الرسائل التي كنا نبعث بها الى الفرق المنافسة لكي تتبارى معنا . .

حضرة كابتن فريق قلب الاسد المرعب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . وبعد . .

فان فريقنا يريد ان يتبارى معكم عصر يوم الجمعه الموافق / / ١٩٤ . . في تمام الساعة الثالثة، واللعب على أرضنا في ميدان مولد النبي ، و(الكفر الجواني) من عندكم، و(الكفر البراني) من عندنا (أو العكس) . . واللعب بالجزم . . واللاعبون ستة ضد ستة . .

حارس مرمى وباكان وسنتر ونجان . .

والحكم من حي غير حيكم ولا من حينا

عبده يوسف كابتن فريق النيل

ولااظنني سعدت بتوقيع مقال لي، أوآية ورقة كما كنت اسعد بتوقيع هذه الرسالة التي كان اسمها (باصه). . ويأتي الفريق قبل الموعد ومعه مشجعوه. . وأحيانا كنا عندما نفوز نأخذ (علقة) ساخنة من الفريق المنافس فقد كنا صغار الاجسام والاحجام، الامر الذي ييسر ضربنا بشدة وقسوة عندما نفوز لكننا رغم ذلك ماكنا نفرط قط في الانتصار باهداف كثيرة وعند نهاية المباراة نجري بسرعة لنحتمي بالشارع الذي نسكنه!

وكان اهل الشارع يضيقون بنا كل الضيق، لاننا كنا نلعب وننادي بعضنا البعض بصوت عال، فضلا عن ان المشجعين كثيرا ماكانوا يهتفون لنا ويصفقون وذلك يقلق نوم الكبار، الذين ينهضون في غضب ليلقوا علينا بالماء، الذي يجعل الملابس الرمادية الترابية غير صالحة للعب. . وكثيرا ماكانت اصواتنا ترتفع قائلة ضاحكة. .

ـ نريد المزيد. . الجو حار!

ولايجد هؤلاء سبيلا لوقت اللعب الا مناشدة ضمائرنا، كي ننتقل الى شارع آخر، وثالثا. . وفق درجة احتمال

اهـل هذه الشـوارع ، لضجيجنا الشديد، ووفق علاقتهم بنـا . . اذا كانت لهم مكـانـة عندنا او آباء واقارب لبعض اللاعبين جاملناهم وغادرنا المكان!

وذات يوزم سجلت هدفـا رائعـا في فريق منـافس، صفق له زملائي كثيرا وهتفوا، وصرخ واحد من مشجعي الفريق الآخر. .

- ياابن الكلـ. . . .

كان يبـدي اعجـابـه، فشتمني بهـذا اللفظ، وقامت مشـاجـرة توقف اللعب بسببهـا، ونـال هذا الـذي سبني ضربا لاأظنه نسيه عمره كله. . وماامتدت يدي يومها الى احد، رغم اني كنت السبب وراء كل الشجار!

وكـان ابي الشيخ يجلس ليلعب الشطرنج امام متجر صديق له اسمـه (امين جرجس). . وذات يوم كانت لنـا مبـاراة، يكفيـه ان يدير مقعده ليشاهدها وكنت اخاف ان يحـول بيني وبين اللعب لذلك نصحت مشجعي فريقي ان يصطفـوا ليخفـوا الملعب عنـه . . واذا به يكف عن لعب الشطـرنـج ، وينهض ليستأذنهم في ان يتنحـوا كي يشـاهـدني وانـا العب . . وقد ادهشهم ذلك كثيرا، وظل

يراقبني طيلة المباراة، وسجلت فيها هدفين، ورآني وزملائي والمشجعين يحملونني على اكتافهم ويهتفون لي.. وقال لي عندما التقينا في البيت امام (أمي أني) اجدت اللعب.. وسألني من اين اتيت بحذاء كرة القدم الذي كنت البسه في رجلي اليمنى فقط، فاعترفت له ان صديقي (مصطفى حمامي) اكتفى بالفردة اليسرى واعطاني اليمنى متنازلا عنها.. وقد عرفنا اشياء كثيرة في كرة القدم، بالفطرة.

عرفنا «التسخين».. قبل اللعب..

وعرفنا «التدريب» و«التمرين»، واذكر أني كنت استطيع أن اقف ووجهي للحائط اضرب به الكرة بباطن قدمي، ويعد زملائي كم مرة افعل ذلك دون ان تقع الكرة، وفي بعض الاحيان وانا واقف على قدم واحدة، ولاتمس الاخرى الارض.. وكنت اتجاوز الرقم مائه!.. وكنا نسمي ذلك «التنطيق»..

وعرفت كيف اضرب الكرة بكعبي..

وكثيرا ماسجلت اهدافا بخارج قدمي قرب اصابعها.

ولايستطيع حارس المرمى صدها لانها تأتي ناحية يده

اليسرى، بعيدا عنه . .

وكثيرا ماكان حارس المرمى يصد الكره بجلبابه . . اغلبهم كان يرتديها لانها تساعده على ذلك، خاصة اذا لم ننص في الرسالة التي نبعث بها على أن اللعب يجب ان يكون بالبنطلون القصير، اوملابس التدريب العسكري الصفراء اللون، والتي تحتمل طويلا، ولايسهل تمزيقها . .

لقد كانت كرة القدم وفرقها ومبارياتها «مدرسة» تعلمت فيها الكثير: لم يكن النصر يدفعني للغرور وما دفعتني الهزيمة لليأس وكانت درسا رائعا لي علمني الصبر والتواضع!

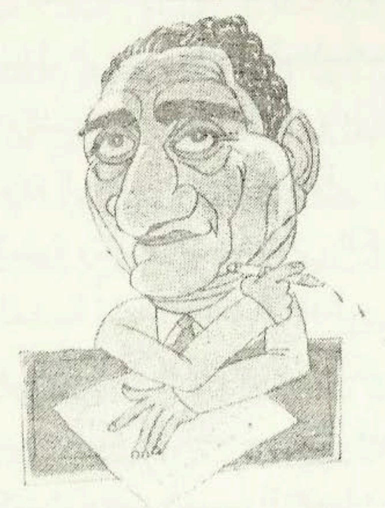
وكنت رئيس الفريق . . ولي كلمة مسموعة . . واذكر ان بنت الجيران وانا لم اتجاوز الثالثة عشرة من عمري سألتني :

ـ انت تطلب من اي لاعب في فريقك ان يخرج وتستبدله بآخر في سهولة ويستجيبون لك . . ماذا لو ان احدهم رفض ان يخرج؟

ـ لم يحدث هذا ابدا .

كان الجميع يجمعون على طاعتي، بالحب اذ كنت
(اشطرهم) في الدراسة وكنت مهذبا لا الفظ بكلمة نابية
قط ولم اكن انـزل الى الشـارع بالجلبـاب بل مرتـديـا
ملابس اللعب وكنت من ابرز اللاعبين، بل ابرزهم وكان
الجميـع يسعـون الى صداقتي . . لتفوقي . . لهذا كنت
مسمـوع الكلمـة وتجـاوزت شهـرتي الكـرويـة الحي
والشارع الى المدينة كلها، وكان الاطفال يرون أني امهر
لاعب صغير في كل انحـاء المدينة . . لكنني لم اشترك
في فريـق الـمـدرسـة لأن حجمي كان قليـلا، وكنت
قصيـرا! . وكـنت اوقف المبـاراة عنـدمـا تمـر بنت
الجيـران . . واوقفهـا حين يمر والد زميل لنا، .وعندما تمر
سيـارة اوعربـة يجـرهـا حصـان . . وظللت العب الكـرة
الشراب الى ان تخرجت في الجامعة، وبلا حرج!

سنوات المعاناة
الحرب والظلام والجوع



وشبت الحرب العالمية الثانية . .

ماذا تعني هذه الحرب لطفل في الصف الرابع في مدرسة ابتدائية في مدينة صغيرة على النيل في صعيد مصر؟! . .

ارتفع ثمن الكراسة: مليما واحدا . . وكنا نمشي ثلاثة كيلومترات لنشتري الكراس بنصف القرش، لان دكانا مازال يبيعه بهذا السعر ولم يزد عليه المليم وكانت قوته الشرائية تساوي: بيضة! . . أو عشر قطع من «الطوفي» الشيكولاته! وتوالى ارتفاع ثمن الكراسة،

حتى وصل الى سبعة قروش ونصف النرش!!، وكانت مأساة ان يطلب منا معلم كراسة جديدة، ثمنها خمس وسبعون بيضة!!

واتفقنا مع معلمينا على ان يكتفوا بالكراسات التي تصرفها لنا المدرسة في مطلع العام والا نزيد عليها، وكان أن بدأنا نكتب بخط صغير - ومازلت الى اليوم - ونتجاوز الهامشين، حتى تكفينا الكراسة عاما كاملا، ولانحتاج للجديد واصبح الورق قليلاً، واصبح مسموحا لنا ان نستخدم الورق كمظروف للخطابات وعانينا الكثير من ازمة الورق..

وتوالت الازمات.. الكيروسين.. الشاي.. السكر. الخبز ومانسيت مدرس اللغة العربية الذي بعث يوما بفراش المدرسة لكي يشتري له طعام الافطار ولم يجد الفراش خبزا، فاكتفى بشراء قطعة من (الحلاوة الطحينية) التهمها المدرس ودخل حجرة الدراسة.. وعند الظهر بعث الفراش ليأتي له بطعام الغذاء، وللمرة الثانية لم يجد الفراش خبزا.. لقد كان الناس يتجمعون امام المخابز ليختطفوه بعد ان شح وعز، واصبحنا نحن

ابناء القرى نستورده منها ولانعتمد على المدينة . .
والتهم معلمنا قطعة اخرى من (الحلاوة)، ودخل الينا في الحصة السادسة، وقال:

- اخرجوا كراسات الاملاء!

ومازال صوته يرن في اذني وهو يقول:

- اكتبوا في وسط السطر عنوان املاء اليوم:

«الرغيف»

قالها بشكل تراجيدي ملفت للنظر، انفجرنا له ضاحكين . . وراح يتغزل في الرغيف: هل انت قمر عال في السماء لاتطوله ايدينا؟ هل . . ؟ هل . . ؟ . .
وكم ضحكنا وبكينا لموضوع الاملاء هذا! وكنا لانجد السكر لصنع الشاي، وهو من ضرورات حياتنا، كما كنا نكتفي باشعال مصابيح الغاز لساعات قليلة ليلا بعد ان قل البترول،

واصبح كل شيء يباع بالبطاقة التموينية . . واذكر ان ابي كان غاضبا يوما على قريب لنا، وهتف في ضيق:

- انه يستحق حرقه بستين صفيحة من الغاز (الكيروسين)! قلت له ولم اكن قد تجاوزت العاشرة من

عمري :

ـ نحن لانجد لترا!

وانفجر رحمه الله ضحكا، ونسي ضيفه . .

وقد عشنا الظلام الدامس حين تنعق صفارات الانذار، كما عانينا الجوع من اجل قضية الحلفاء، وانجلترا التي تحتل ارضنا، لذلك زادت كراهيتنا لها والاستعمار . . وكرهنا الذين استغلوا فترة الحرب للاثراء على حساب الجماهير!

وفي السبعينات كنت اخوض معركة انتخابية ضارية، ومعي اثنان من جيلي وكان منافسنا واحدا ممن اثروا واستغلوا الجماهير في اعوام الحرب العالمية الثانية واثرى ثراءا فاحشا . . وكانت هذه ورقة في ايدينا جعلت الجميع ينفضون من حوله ويقفون الى جانبنا في صلابة . . شعبنا لاينسى، كما يتصور الناس . كانت الحرب قد انتهت منذ اكثر من ربع قرن، ورغم ذلك كانت اتهاماتنا له عالقة به، لايقدر على دفعها او انكارها . . ولعل اطرف ماحدث أنه بعث الينا بواحد من اعوانه يفاوضنا لكي نتفاهم ولمح الى قدراته المالية

الكبيرة على الانفاق في المعركة، واشار من طرف خفي الى انـه من الممكن «التفـاهم»، وانه لا يعنيه من سيأخذ ماإعتمده من مال للمعركة، وشتمنا الرجل، وكان ثقيلا، لحـوحا، غبيا، ورحنا نحكي له مافعله بنا صاحبه خلال الحـرب العـالمية الثانية، وكاد يغمي علينا من الضحك وهو يقول:

انسوا هذا الكلام القديم. . ساحضره لكي يعتذر لكم عما بدر منه يومها. . ونبدأ من جديد!

يريـد أن يعتـذر لنا عما فعله بالجماهير منذ ربع قرن!!، كم اذهلنـا اقتـراحـه العجيب. . وقـد لقى الـرجل على ايـدينـا هزيمـة ساحقـة!، ثم اتيحت له الفـرصـة بعـد منتصف السبعينـات ليعـود كي يحتـل مكـانـا مرموقا في المجـال الاقتصادي، الامر الذي افزعني، وأدركت معه انـه لالقـاء بيني وبين الجـالسين على مقـاعـد السلطـة ونفرت من العمل السياسي نفورا شديدا، جعلني امسك بزمام نفسي، واعتزله نهائيا بعد مفاوضات الكيلو(١٠١) قرب السـويس. . اذ احسست يومهـا أن نصـر اكتـوبـر يتسرب من بين أصابعنا وأننا نبيعه بثمن بخس!

القرية عاشت في ضميري ووجداني



كان عامي الدراسي ينتهي بنجاحي ، قبل ان تبدأ
اجازة أبي السنوية وانتظرها بفروغ صبر . . وعقب دروس
يوم «الخميس» نكون قد اعددنا كل شيء ومع صباح
السبت تنطلق بنا سيارة عجوز تحملنا : أبي وأمي
وشقيقاتي ، وتحمل كماً كبيراً من الثياب والدواء والهدايا

للاهـل، كما اكون قد اعددت لاقاربي واصحابي الكثير
من الحلوى. . والسيارة تأخذنا (من الباب الى الباب)،
اي من باب بيتنا في المدينة الصغيرة الى باب بيتنا الذي
وُلـدت فيـه بالقـريـة، والمسافة لاتتجاوز ستين كيلومترا
نقطعهـا في ساعـات طويلة. . وكان (بحر يوسف) يقف
في طريقنا وندفع السيارة الى (معدية) اي مركب صغير،
تنقلهـا من الشـرق الى الغـرب. . مسـافـة لاتـزيد على
خمسين متـرا تستغـرق منـا اكثـر من ساعة!. . ولم تكن
قريتي ترى غير هذه السيارة التي تحملنا اليها، من العام
الى العـام!. . واذكـر فرحتي الغـامـرة بهـذه الـرحلة
السنـويـة، ونتشـاجـر نحن الصغار كل منا يريد ان يكون
قرب نافـذة السيـارة، ونحن نحلم بالايـام الحلوة التي
تنتظـرنا. . وكانت رائحة البنزين تصيب امي بالغثيان. .
ويبقى ابي يتلو القـرآن ويـدعـوان نصـل سالمين. .
وتستقبلنـا القـريـة في فرحـة حقيقيـة، فأبي في المدينة
يخدمهم باستمرار، وهم يحبونه بحق ويبقى بالبيت ثلاثة
ايـام لايغـادره، يستقبـل كل أهـل القـريـة، يحـدثهم
ويحـدثـونـه الى وقت متأخـر من الليـل، ولايغـادر غرفة

الاستقبال الا للصلاة والطعام، واكواب الشاي تدور على الحاضرين بلا انقطاع . . وقليلا ماكنت أشاركهم جانبا من هذه الجلسات .

لقد كنت اخلع ملابس المدينة ، وارتدي الجلباب . . ولا ارتدي «البدلة» الا بعد شهرين ، ونحن نغادر القرية عائدين . . وابدأ في لقاء أقاربي وأصحابي ، وأنطلق الى الحقول، والنخيل . . دون أن تفوتني زيارة اهلي : بيتاً بيتاً واتلقى منهم التهنئة على نجاحي في الامتحان . .

وكنت احمل كرة قدم قديمة نلعب بها ، بجانب تلك الالعاب الشعبية التي درجنا على ممارستها باستمرار، وكانت تستهويني كثيرا . . وقصتي (خيال الحقل) فيها ذلك الجو الذي كنت أعيشه في القرية ، بل اذ شخصياتها كلها مأخوذة منها واسرتي تحمل اسم (العتوره) . . والعتر هو الشجاع . . وكانوا فقراء الى درجة كبيرة . . وكانت اسرة امي تحمل اسم (ابوعميرة) وجدهم الاكبر كان من رجال عرابي ويحتل مكانة مرموقة ، اذ أختير عضوا لمجلس شورى القوانين ، وكان

ينوب عن المحافظة اثنان في هذا المجلس الاول هو (محمد سلطان) والد هدى شعراوي وكان من رجال الخديوي توفيق وقد خان مصر وعرابي وعاون الانجليز على احتلال البلاد واصبح رئيسا لمجلس شورى القوانين ومنح عشرة آلاف فدان ـ اما جدي لامي الذي انضم الى عرابي فقد طورد في الصحراء بعد دخول الانجليز، واستمر مطاردا الى سنوات طويلة، وصودرت ارضه، وحل الخراب والفقر على اسرته. . وان بقيت من افضل عائلات القرية حسبا ونسبا وما ان انحسر النفوذ الانجليزي حتى أصبح ابناؤه بعد حين يحتلون منصب (عمدة القرية). .

وفي يقيني ان قريتي قد علمتني بقدر ماعلمتني المدرسة. . بل اظنها فد تفوقت على المدرسة في تشكيل حياتي وقيمي الريفية التي ظلت معي، وحملتها الى اوربا وامريكا، ولم اكن قروياً متخلفاً، بل انسانا حضاريا بكل معنى الكلمة!

وتنقسم قريتي الى قسمين «النص القبلي» و«النص البحري» ـ أي النصف ـ وبينهما مكان فسيح يطلقون

عليــه (بين البلديْن)، اصبـح سوقـا للجـزارين وبـاعـة الخضر وكثرت فيه المتاجر.. وكان الاطفال في كل قسم يتحـــزّبــون له وقــد شاهــدت الكثيـر من المعــارك بين القسمين، يخــرج البعض الى مكــان فسيـح للشجـار ويتنافسون في المصارعة، وفي اغلب الاحيان يتقاذفون بالحجـارة الصغيـرة بواسطة (المقلاع) وكنت اشهد هذا دون أن أدرك له سراً، خاصــة وقــد كان البعض يشـــج رأســه، اوتقـع له اصـابة كبيرة.. والغريب أنّ بعضا من الكبـار والشبـاب يشـاركـون في هذه المباريات الحمقاء التي توقفت عنهـا القـرية بعد حين، اذ تسببت في بعض العداوات اذ كان الخصام بين الجانبين يحول بين القسم الآخـر وبين الـوصول الى الحقول ويعتدون عليهم اثناء الطـريق، الامر الذي أفزع العقلاء، فوقفوا في وجه هذا العبث الذي استمر طويلا، بلا طائل..

فاتـني أن أقــول اني كنت انــدهش لهــذا التقسيم واضـيق به كل الضيق، وكنت أحب أن يســودَ الســلام قريتي، خاصــة بعـد مااشتعلت الحـرب العالمية الثانية وقـرأت عنهـا الكثيـر، بل وعــانيت منهـا كل المعاناة في

المدينة . . وعانت منها القرية ايضا اذ انقسم اهلها على انفسهم : فريق يشجع الالمان والمحور لأنهم أعداء الانجليز الذين هم أعداؤنا ومحتلوا أرضنا ، وفريق يناصر الحلفاء وانجلترا لانها ستجلو عن بلادنا بعد انتصارها في الحرب . . وكان بين الفريقين في قريتي حرب!

ولقد احتشدت شهور الصيف بأحداث كثيرة ، ورغم أن كل ماقضيته في قريتي خلال سنوات دراستي لايتجاوز العام ونصف العام ، بشكل متقطع إلا أنها كانت اياما خصبة .

وما من اجازة منها الا وأصبت في بدايتها وبعد وصولي بثلاثة او اربعة ايام - بالرمد في عيني ، وكنا نحمل معنا دواءه ! ، وقد تسبب ذلك في ضعف عيني ، بل كدت مرة افقد بصري لولا ان نجاني الله . . ومازالت آثار سحابة بيضاء على عيني اليسرى من أثر العلاج الخاطيء ! . .

وقد شاركت الأطفال الذهاب الى الحقل لجني القطن ، بل قضيت مرة ليلة حراسة بجانب المحصول ، وشاركت في اعمال الري ، والزراعة بشكل طريف وكان أبي يحاول ان يعيد بناء بيتنا في القرية .

. . وفي كل عام يضيف اليه الجديد، مما جعلني اتابع عمليات البناء والنجارة. . وكم ذهبت الى سوق القرية، وترددت على مدرستها وكتاتيب حفظ القرآن الكريم ومسجدها وكنيستها. .

لكن ذلك كله كان خلال (اللعب)

كان اللعب يشكل أغلب ساعات النهار، وكانوا يفتشون عنا ساعة حلول موعد الغذاء، الى ان يكتشفوا مكاننا، ويعيدوننا للبيوت لتناول الطعام. . وكثيرا مانكون مدعوين عند بعض الاهل. . وكنا نخاف الظلام، فما من ضوء بعد غياب الشمس الا القمر، ولم يكن كافيا للعب، لذلك كنا نأوى الى بيوتنا مبكرين، لنصحوا مع العصافير وهي تزقزق، او مع الديكة وهي تؤذن للفجر. .

وزمام قريتي - اي مساحة اراضيها - نحو خمسة آلاف فدان من اراضي ري الحياض. . اي أنها لاتزرع ايام الفيضان، لأن مياة النيل تغمرها بالكامل وتصبح جزيرة معزولة لايربطها بالمدينة غير جسر إن انقطع غرقنا!، وكان ثلاثة افراد يمتلكون ثلاثة آلاف فدان

فيهـا : «قهـوجي» باشا الذي قد كان يقدم القهوة لمحمد علي باشـا والي مصـر، وعلي بك اوغلي اغـا وهـو من الاسـرة الحـاكمـة، و«مـاركـو» وهـو من النمسـا، وكان صاحب حانـة في الفشن، يشتـري الفدان مقابل زجاجة خمـر. وكـان أهـل القرية وهم بالآلاف لايملكون غير الفي فدان!!..

وكان عمي الفلاح يردد دائماً:

متى يرفع الله عنا هذا «النيل»؟ انه مصيبة!!

وفي المدرسة كانوا يعلمونني عبارة هيرودوت الشهيرة:

مصر هبة النيل:

وكم تساءلت وسألت وانا صغير: هل «النيل نعمة ام نقمة»..

وقـد استطعت ان ارد على سؤال عمي بعـد ان وضع عبد الناصر حجر الاساس لبناء السد العالي في ٩، ١٠ يناير عام ١٩٦٠، وكنت ازور السودان في ذلك الحين، بعـد ان مررت على موقـع السـد وقـد رسم، مثـل ارض المـلاعب، بالجير الابيض.. وظللت اتردد عليه سنويا حتى قام بناؤه الشامخ بعد عشر سنوات..

كان النيل ايام الفيضان يغرق ارضنا وبعد الفيضان نحتاج الى ماء ارتوازي ننتحه من باطن الارض وندفع ثمنه غاليا! . . لذلك كان من الصعب ان ندرك نعمة النيل، وان كانت القرية قد علمتني قيمة الخضرة، وروعة «قطرة الماء» . . وكم اوحت الي بالكثير من اعمالي للاطفال من بينها رواية (الشجرة المنتصرة) والعديد من (قصص خضراء من الارض الخضراء) . . وبودي ان اقدم لكم نموذجا مما كتبته من قريتي، وعنها واخترت لكم قصة «الطلمبة» التي نشرتها «المزمار» العراقية في واحدة من اعدادها وكان صداها طيبا بين قرائها . .

الطلمبة



من قريتي الحبيبة في بني سويف آخذت هذه القصة، وأهديها اليها مع كل الحب والاجلال للارض الخضراء، والقلوب الخضراء التي تعيش عليها

عبد التواب يوسف

العم عبد العظيم، فلاح عظيم.. صديق للفأس والجرار، والحقل تشرق الشمس وتغرب، وهو بين زرعه، يحنو عليه ويحبه كأبنه.. وهو في البيت لايحس

بمشكلة انقطاع المياه عن الصنبور، اذ ليس عنده ماء يجري في الأنابيب، بل عنده «طلمبة» تسحب الماء من على بعد قد يصل الى عشرين مترا تحت الارض، وهو فخور بها، يعتز بمائها كل الاعتزاز. . يراه أعذب من ماء النيل نفسه تصوروا!! وكثيرون من أهل قريتي يشاركون العم عبد العظيم رأيه هذا. بل يضيفون. .

. . أجمل (شاي) تشربه اذا كان ماؤه من طلمبة العم عبد العظيم!. ماؤها يروي ويمري! وهم يعنون بذلك أنه يمر بالمرىء فيطفىء عطش الحران ويبل ظمأه، خاصة في أيام الصيف، اذ يخرج من باطن الأرض باردا مثلجا! لهذا يبعث اهل القرية ببناتهم وأولادهم ومعهم الأواني يسعون الى طلمبة العم عبد العظيم يجلبون منها الماء، وعندها نجد زحاما طيلة النهار، منذ أول خيوط النور، وبعد أن تغرب الشمس. . والأطفال عندها يتبادلون الأخبار والاحاديث الحلوة، لانهم كثيرا مايبقون عندها وقتا قد يطول. . وهم أحيانا ينسون أنفسهم، ويستمتعون ـ بالجلسة، وتقلق الامهات فيبعثن بمن يعود بالصغار وأوانيهم الى بيوتهم.

والعم عبد العظيم سعيد كل السعادة، اذ وهبه باطن الأرض هذا الماء الزلال، وهو يتحدث عن الطلمبة كثيرا من باب «واما بنعمة ربك فحدث»، ولم يكن يمنع أحدا من الحصول على الماء، بل انه أحيانا كان يجد أطفالا صغارا غير قادرين على تحريك يد الطلمبة، لأنها تعلو على قامتهم، أو لصعوبة ادارتها فينهض بنفسه، بساقه الوحيدة متوكئا على عصاه لكي يعين الأطفال، وكثيرا مايتبسط في الحديث معهم ويتناقلون عنه في القرية قوله . .

الناس شركائي في هذه الطلمبة . . الماء ملك للجميع . . ملك لبلدتنا كلها . . لا آخذه لنفسي وحدي لمجرد أني أملك الطلمبة . خيرها يجب أن يعم على الجميع . .

وكثيرا ماتعطب الطلمبة، لأن ايدياً عدة تتوالى عليها، لكنه لايبخل عليها بالاصلاح، وليس هناك مايؤلمه أكثر من أن يرد عنها طفل أو طفلة جاءا ليحملا منها الماء . . وكان دائما اذا سافر بعيدا عن القرية يوصي زوجته وأولاده . .

لاتمنعوا أحداً من الحصول على الماء . . احذروا .

وسافر العم عبد العظيم مرة ، بعيدا عن القرية اسبوعا كاملا . . وعاد اليها ومع الصباح . . يوم رجوعه امتدت يده تدير الطلمبة . . واذا بها لاتخرج الماء العذب الذي تعوده منها ، أذهله ان تخرج معه طينا ورملا . . وهتف لزوجته يسألها :

ـ ماذا حدث للطلمبة ؟

ردت عليه : لاشيء . . اننا . . حق . . لم ندرها منذ سافرت !

صرخ : ماذا ؟ ! حرمتم الناس من مائها ، وها أنتم أولاً تحرمون منه ! ! انكب العم عبد العظيم على الطلمبة يفك اجزاءها . . انه يعرفها قطعة قطعة . . وارسل يستدعي اليه الميكانيكي وهو غير قادر على ان ينتظره وما ان تطلع الرجل اليها ، ورأى الماء الذي اخرجته حتى قال :

. يجب أن نسحب الماسورة ، وندقها من جديد . .

كان معنى هذا أن تتوقف الطلمبة عن العمل اياما ،

كما أنها سوف تتكلف الكثير. . ولكن العم عبد العظيم راح ينظف «قلب» الطلمبة. كانت اجزاء منه قد اسودت وعلاها الصدأ. ولم يدعها من يده الا بعد أن رآها لامعة، تبرق كالفضة وأعاد تركيب قطعها من جديد وقلبه يحدثه بأن شيئا ماسوف يحدث. . وكان الميكانيكي يرقبه في اهتمام، تجمع الأطفال من حوله يحملون أوانيهم لكي تمتليء بالماء وعندما وجدوها مفككة الأجزاء وقفوا يتطلعون في لهفة ويدعون الله سرا، ورفضوا أن يتحركوا من أماكنهم الا بعد أن يطمئنوا على طلمبة العم عبد العظيم.

أعيد كل شيء الى مكانه، وتم تركيب يد الطلمبة، ونظر طفل صغير الى العم عبد العظيم بعينين متوسلتين يطلب شيئا أدركه الرجل على الفور واستجاب له الصغير يريد ان يكون له شرف ادارة الطلمبة بعد أن تم اصلاحها. .

وامتدت يد الصغير، واطلت من عينيه نظرة قلقة، ثم هتف. .

«بسم الله الرحمن الرحيم»

وتـدفق الماء من الطلمبة. . عذبا. . طاهرا. . نظيفا. .
وهتف الأطفال من حوله بفرح. .
. . الله اكبر. .
ومضى العم عبد العظيم، وهويقول:
القلب يجب ان يكون أبيض.
هل كان يقصد قلب الطلمبة؟ ام قلب زوجته وأولاده؟! . . لااحد ويضيف: قلب الطلمبة يمكن غسله بالبنزين، كيف نغسل قلب هذه المرأة. والطلمبة. . الى اليوم. . قائمة في صحن دار العم عبد العظيم. . طاهرة القلب عذبة الماء وافرة العطاء. . تروي العطاشى والظمآنين، ويحلو صنع الشاي وطهو الطعام من مائها!

(ختام القصد)

وقد طلب مني ذات يوم ان ارتدي ثيابي النظيفة، وان ابقيها كذلك واحافظ عليها فان عضو مجلس النواب قادم لزيارة ابي، والقرية. وتمتمت. .
- مالي به؟!
كان يحمل لقب (بك)، وكان ينتمي الى قبيلة عربية

شهيرة، وله قصر واملاك واسعة، والناس تتحدث عنه في اعجاب ظاهر، وعندما جاء ذهلت اذ كان قصيرا الى حد كبير. اطول من قامتي بقليل، ويركب حصانا ابيض، ومن حوله عشرات الناس.. واستقبل بحفاوة كبيرة.. تصفيق، وزغاريد، وطلقات رصاص في الهواء.. وماكنت اعرف لصغر سني اي شرف ذلك الذي يوليه لنا بالزيارة، وقالوا لي لاقناعي بالدخول لتحيته..

- سوف يتوسط لك لتحصل على المجانية في المدرسة!

ودخلت وقد جلس في صدر (المنظرة) بجانب ابي.. واذا بكل من في الغرفة يهتف بي..

- سلم على البك..

واشارت اليه الأصابع.. وتقدمت في تثاقل، ومد يده الي جالسا، ومن جديد ارتفعت الصيحات..

- قبل يد سعادة البك!

ورفع ذراعه، وقلب يده، لكي يعينني على تقبيلها، لكنني لم افعل رغم انه ابقاها في يدي طويلا.. وتكهرب الجو وانقذني ابي بقوله..

- انني ماسمحت له بتقبيل يدي ابدا..

فالقى اليك بيدي، وغادرت الغرفة لاعود الى اللعب

(وكنت يوما ألعب الكرة في الشارع امام بيتنا.. وشارعنا رئيسي في القرية.. ومر «البلوكامين»، وهو رجل شرطة يحمل هذا اللقب وينوب عن «ضابط النقطة» في غيابه، وله مكانة كبيرة في القرية اذ يخشونه ويخافونه.. وقذفت بالكرة بكل قوة طفل في التاسعة من عمره، واذا بها تصيبه في ظهره، والتفت الي في غضب شديد، وقال لي..

ـ انت الذي قذفت هذه الكرة؟

ـ نعم..

ـ كيف تصيبني بها ياابن...

وشتمني.. وصعقت.. وتلفت حولي فوجدت كل اصدقائي واقاربي قد جروا واختفوا خلف الابواب، وخلا الشارع الا منه ومني، لكن ذلك لم يخفني، بل رددت عليه في عنف..

ـ انت ابن ستين....

وصعق هو في هذه المرة وتقدم يريد أن يضربني ورحت اتراجع للوراء، وهو يخطو نحوي: ضخم الجثة

عريض المنكبين. . وارتفعت صرخات زملائي من خلف الابواب واذا بالشارع يمتلىء بأهلي، وحالوا بينه وبيني وانصرف مهددا متوعدا!

وجاء عمي المدرس، وعلم بالقصة، فقال لي:

- كيف تشتم رجلا أكبر منك؟!

وجاء عمي الفلاح، وسمع بالحكاية، فصرخ في:

- ايشتمك هذا الرجل؟! كان يجب ان تدخل لتأتي بالبندقية وتطلق عليه رصاصة!!

وجاء ابي، وعلم بالامر. . فلم يقل كلمة واحدة، لكنه تقبل الامر في هدوء وبعث يستدعي اليه شيخ البلد، وأوفده الى «البلوكامين» يطلب منه ان يزورنا لتسوية الامر، وتمنع الرجل طويلا، لكنه قدم تحت ضغط شيخ البلد. . واستطاع ابي بلباقة ان يسوي الامر، وجعلني اعتذر له لأني البادىء، وكان قدومه كافيا مرضياً للاسرة عن شتمي. . لكن عمي الفلاح لم يقبل ذلك، واقسم ان يطلق عليه الرصاص ان هو بقي في القرية. .

وصارت المسألة ازمة. .

واضطـر ابي الى السفـر الى المـدينـة، وتحـدث الى «حكمـدار الشـرطة» الذي نقل (البلوكامين) من القرية، حتى لايتسبب النزاع معه فيما لايحمد عقباه. .

والامن في القـريـة مشكلة. . عدد قليـل من جنـود الشـرطـة قد لايـزيدون على العشرة، هم تابعون لضابط لايحب العمل في هذه الاماكن النائية، وهناك عشرة من الخفـراء تابعـون للعمـدة. . وعلى هؤلاء أن يحـرسـوا خمـسـة الاف نسـمـة، وخـمـسـة آلاف فدان من الـمـزروعـات، وكـم هي شاقـة هذه المهمـة أيـام المحـاصيـل، اذ تتعـرض للسرقة، لذلك فان الاسرات والافراد مسئولون عن حماية انفسهم وممتلكاتهم وحراستها. .

واذكر ان خفيرا منهم كان خفيف الظل، وكثيرا ماكان يجلس ليحكي لي بعض مايصادفه من طرائف. . أسألهُ:

ـ اين منطقة حراستك. .

قال: عزبة هنا قريبة. .

ـ هل تقع فيها حوادث سرقة؟!

- لا لا . . لايمكن . . كيف يحدث هذا وانا موجود فيها؟!

- اليس في العزبة لص واحد؟!

- بل كل اهلها لصوص . .

وادهشني الامر، وفسرها لي . .

- هم فقراء، لايسرقون بعضهم بعضا، بل ينطلقون الى السرقة من خارج «العزبة» وبذلك فإنَّ كل شيء على مايرام فيها، والامن مستتب تماما والمسئولون راضون عنه كل الرضا؟!

وجاء يوما وهو حزين، سألته:

- ماذا بك؟

- مرَّ بي الضابط وانا في نوبة حراسة . . كنت نائما . . ضربني بقدمه أيقظني . . ماانْ لمحته حتى أدركت الموقف بالكامل . . صرخ في:

- كيف تنام وانت في نوبة الحراسة؟!

- انت سترفدني، فلا تصرخ في . . لقد نمت على حسابي! (وانفجر الضابط ضاحكا لكنه لم يسامحه، ولفق له اغرب تهمة، ولكنها أقل عقوبة من النوم اثناء

الحراسة. اتهمه بانه يؤجر بندقيته للصوص، لكي يهددوا المواطنين بها ويسرقوهم!!.

وقرب القرية، على الجسر المؤدي الى مدافنها،

تَقع (عزبة المغاربة) واهلها لهم لهجة غريبة بعض الشيء عن لهجة القرية، وعندهم «شيخ» او «ولي» يحتفلون بمولده سنويا ويقيمون الذكر، ويتلون القرآن في هذا المولد. . كما كانوا يستمعون الى الشاعر «على ربابته يحكي قصة الزناتي خليفة» وكان اهل قريتي لايتحمسون له، كانَ «ابوزيد الهلالي» هو بطلهم المفضل. . لذلك كان هناك فريقان يتحمس كل منهما لبطله، وتقوم بينهما مساجلات ومشاجرات تضحكني. . ولم أعرف سرها الا بعد ان كبرت وعرفت أنَّ المشرق كله يتحمس للبطل «ابي زيد الهلالي»، بينما اهل المغرب يرون فيه غازيا لبلادهم معتديا عليها ويرى في الزناتي خليفة «التونسي» بطلا يقاوم ذلك الغزو. ويبدو أن (المغاربة) الذين يسكنون هذه العزبة قد وفدوا اليها حاملين تراثهم من بعيد، وظلوا في اعماقهم يكنون الحب لبطلهم الزناتي!.

وتذكر القرية أنَّ جدي لامي كان يتابع بشغف شديد قصة «عنترة» ويراه بطلا صنديدا عظيما، وعندما وصل الراوي في حكايته للسيرة الى زواج عنترة من عبلة ذبح جدي عجلا سمينا، واقام الافراح والليالي الملاح لهذه المناسبة التاريخية الرائعة، الا وهي زواج عنترة من عبلة . .

وكثيرا مايضاحكني اهل قريتي قائلين :

- ليس غريبا ان تحكي القصص وتحبها. جدك من قبلك ! !

عندما التحقت بالجامعة، كان بعض الاصدقاء يدهشون لانني فخور بريفيتي اشيد بها، بينما يحاولون التنصل منها (وقد صارحني واحد منهم اصبح استاذا بالجامعة الامريكية انه لم يدرك قيمة ذلك الا بعد ثورة يوليو وانصافها للفلاحين) وكان انتمائي هذا للقرية والفلاحين يمنحني الكثير من الثقة بالنفس، والاعتزاز، وكنت أسخر من زميل كاتب صحفي، صار شهيرا جدا فيما بعد، وقد ركز في كتاباته في اواخر الاربعينات على القرية والاغتراب والوجودية، وكنت اقول له :

ـ هذا كلام لاينطبق علينـا . . ليس عنـدنـا مثـل هذه المشـاعر الغريبة ولا احساس لدينا بالوحدة . . تعال معي الى اي مقهى واجلس الى اي واحد من روادها ، واشربا معـه الشـاي ، وبعـد لحظـات سيحكي لك كل مشاكله واسراره . . والمرأة اذا احست بالملل طرقت باب جارتها وجلست معهـا تحتسي معهـا القهوة ويمتد حديثهما الى كل شيء ، بل قد يتهـامسـان عمـا يدور في الفـراش . . كفاك حديثا عن القرية والاغتراب !

وكـان لا يـرضي عن كلمـاتي هذه ، ويعزوها الى اني لأقرأ ادب أوربا المعاصر ، واقول له انه لايعرف شعبنا واهلنا . .

وحـدث بعـد هذا الحـوار ان زرت قريتي . . ومررت بكـل الأهـل وكـان من بينهم واحـدة من قريبات ابي . . وعنـدمـا دخلت غرفتهـا افـزعني انها خالية تماما من كل شيء يتصـل بالأدميـة فضـلا عن المدنية . . لم تجد لي مأجلس عليه ، فرشت جوالا قديما وجلست عليه وكنت أعتـذر للنـاس في قريتي بأن الطبيب أمـرني بالاّ أشـرب الشاي اذ لو تماديت معهم لشربت مائة كوب في يومي ،

غير اني فاجأت هذه السيدة بقولي :
ـ اريد ان اشرب الشاي !
واوقدت حطبا ووضعت من فوقه علبه قديمة من صفيح صديء، واستعارت كوبا صغيرا وصنعت لي الشاي، ودار بيني وبينها حوار طويل عقب ذلك . .
سألتها :
ـ هل هذه ابنتك « . . . » ؟
ـ لا . . لا . ابنتي ماتت من زمان . . هذه سلمى زوجة ابني أحمد .
ـ هل هي بنت عمي عبد السلام ؟
ـ نعم . .
ذهلت . كنت قد تركتها في القرية وعمرها تسع سنوات . . وكانت ذكية لماحة طريفة . . كم فعلت بها السنون . . إنها تحمل طفلة، وتمسك بيدها طفلا، وهي حامل . . وقفت اسلم عليها من جديد . . ثم جلست اواصل الحديث مع قريبتي وفجأة انفجرت الفتاة بالبكاء . . وخفت ان اكون قد خالفت التقاليد بكلمة او تصرف، ورحت استعطف قريبتي ان تسألها عن سر

بكائها، فأخذتها الى ركن الغرفة، وتهامسا وعادت السيدة تقول لي:

- صعبان عليها غربتك!

ان المسكينة الفقيرة الجائعة تعطف علي، وترى في بعدي عن القرية غربة تستحق دموعها، بينما حالها يمزق قلبي ونفسي.. فهي مريضة عجفاء، لها ثلاثة ابناء، وزوج لايجد ما يطعم به الافواه الخمسة الذين يعولهم وانفجرت أنا بالبكاء هذه المرة.. كان بودي ان اقول لها اني لست غريبا حتى على لندن وباريس ونيويورك مادام جواز سفري في جيبي، ومحفظتي عامرة بالنقود.. وانها المسكينة البائسة غريبة عن الدنيا عن غرفتها العارية من كل شيء، وانه يجدر بها الا تقلق علي، اوتحس بالشفقة نحوي لمجرد اني بعيد عن القرية، لكنني لم استطع أن أنطق بكلمة، وتركت دموعي تنساب، واستغرقني البكاء طويلا، وأنا أهمس لنفسي.

- اني لااستحق منها دمعة!

وذات مرة زرت القرية وجاء واحد من اهالينا

لتحيتي ، وكان بودي ان اسأله عن «والدته» فقد كان شقيقه زميل دراسة وتوفي منذ وقت طويل ، وكانت والدته طيبة حنونة معنا ، لكنني آثرت السكوت ، الى ان سألني ان اصحبه لبيته ، وقبلت فقط من اجل ان اعرف اخبار والدته . . وبعد ان استقربنا المقام في غرفة الاستقبال قليلا ، دخل ليأتي بالشاي وعاد ليقول :

ـ والدتي قادمة لتسلم عليك . .

وشعرت بارتياح . . وهتف . .

ـ بل اذهب انا اليها . . وخرجنا من الغرفة الى ممر طويل يؤدي الى داخل البيت فوجدتها قادمة تتعثر في سيرها ، وكان واضحا انها لاتكاد ترى الطريق . . وعندما اقتربت منها احست بنا ، واذا بها تحتضنني بكل قوة وتضمني الى صدرها ، وتهتف .

ـ الحمد لله ان «رأيتك» قبل ان اموت . . انني عندما اسمعك في الاذاعة اقبل الراديو . . وادعو لك بالخير واسأل الله ان يحقق املي في لقائك ! . .

وأنهمرت الدموع من عيني ، وانا اقول لنفسي :

ـ وانت لاتعرف اذا ماكنت على قيد الحياة ام لا ؟ !

وتروح من جديد تضمني وتقبلني، وتهتف بكلمات حب غامرة، واهمس لنفسي . .

ـ انت لاتستحق منها لمسة واحدة!

وفي زيارتي التالية للقرية ذهبت لكي اقدم واجب العزاء فيها . . (لقد اعطتني قريتي الكثير . . وحاولت ان ارد لها جميلها من خلال اعتزازي بها، وفخري . . واثناء عملي السياسي نجحت في اشياء كثيرة من بينها نضالي من اجل انشاء كوبري يصلها بالحياة واقامة مدرستها الابتدائية والاعدادية وصيانة مساجدها ومساعدة بعض ابنائها على مواصلة الدراسة، لكنني مازلت اشعر تجاهها بالتقصير، واحس أنها أعطتني اكثر مما اعطيتها . . ويكفي ان بعض اهلي فيها يقبلون الشاشة الصغيرة اذا ماظهرت عليها في بعض برامجها، وهذا نموذج آخر مما كتبته من وحي القرية . .

ـ بل اذهب انا اليها . . وخرجنا من الغرفة الى ممر طويل يؤدي الى داخل البيت فوجدتها قادمة تتعثر في سيرها، وكان واضحا انها لاتكاد ترى الطريق . . وعندما اقتربت منها احست بنا، واذا بها تحضنني بكل قوة

وتضمني الى صدرها، وتهتف:

- الحمد لله ان «رأيتك» قبل ان اموت. انني عندما اسمعك في الاذاعة اقبل الراديو. وادعو لك بالخير واسأل الله ان يحقق املي في لقائك!..

وانهمرت الدموع من عيني.. وانا اقول لنفسي:

- وانت، لاتعرف اذا ماكانت على قيد الحياة ام لا؟!

وتروح من جديد تضمني وتقبلني، وتهتف بكلمات حب غامرة، واهمس لنفسي.

- انت لاتستحق منها لمسة واحدة!

وفي زيارتي التالية للقرية ذهبت لكي اقدم واجب العزاء فيها.. (لقد اعطتني قريتي الكثير. وحاولت ان ارد لها جميلها من خلال اعتزازي بها، وفخري.. واثناء عملي السياسي نجحت في اشياء كثيرة من بينها نضالي من اجل انشاء كوبري يصلها بالحياة واقامة مدرستها الابتدائية والاعدادية وصيانة مساجدها ومساعدة بعض ابنائها على مواصلة الدراسة، لكنني مازلت اشعر تجاهها بالتقصير، واحس انها اعطتني اكثر مما اعطيتها..

ويكفي ان بعض اهلي فيها يقبلون الشاشة الصغيرة اذا

ماظهرت عليها في بعض برامجها، وهذا نموذج اخر مما كتبته من وحي القرية . .

القاموس



في المكتبات العامة، وفي محال بيع الكتب، وعلى مكباتبنا، وعلى منضدة معلمي اللغات، نلتقي بهذا الصديق «القاموس» . . . إنه ضخم . . وقليلا ماكنا -

ونحن في سن ماقبل التاسعة ـ نمد ايدينا اليه، وكنا نجده
ثقيلا في حمله صعبا في استخدامه الى أن وقعت لي
حادثة معه في الريف بعد ان تجاوزت هذا السن. .
وهي حكاية مثيرة وطريفة جعلتني أعرف هذا الشيء
الذي اسمه «قاموس» واعرف انه ليس ثقيلا ولا صعبا. .
انه شيء آخر، تماما. . .

عندما كان العام الدراسي ينتهي، واجتاز الامتحان
بنجاح، تبدأ الاجازة والجائزة. . نحزم حقائبنا، ونمضي
الى القرية لنقضي كل شهور الصيف، نعيش حياة
الريف مع الاهل، والاقارب، والفلاحين. . نلعب،
نجري، نذهب الى الحقول نشارك في العمل، ونصطاد
الفراشات، نسك «فرقع لوز» نتسلق النخيل، نقطف
الفاكهة. . كان يومنا يحتشد بالكثير منذ نفتح أعيننا في
الصباح ونغني له أجمل أغنية، حتى نغمضها في
المساء. . كنا نمرح وننطلق وبلا حدود مشكلتنا الوحيدة
فترة الظهيرة. . كان الآباء يصرون على أن نبقى في
بيوتنا بعد تناول طعام الغذاء بضع ساعات، الى ان تقل
حرارة الجو وتميل الشمس للغروب ثم يسمح لنا

بالخـروج. . وكـان لابـد وان نبحث لنـا عن حل لهذه المشكلة التي طال النـزاع فيهـا بيننا وبين اهلنا. . يجب ان نجد وسيلة لقضاء هذه الفترة، دون أن نحدث صخبا فظيعـا، لاينقطـع، وضجيجا رهيبا يوقظ اهلنا النائمين، وكانت القراءة أفضل هذه السبل التي نصحونا بها. . غير ان الكتب التي تناسب عمرنا لم تكن كثيرة، بل هي نادرة وغيـر كافيـة ان وجدت. . تبادلنا كل ماعندنا، حتى أتى كل واحـد من الطـلاب على جميـع ماعنـد اصـدقـائه، وبـدأنـا نشعـر بالقلق، ونسبب الكثيـر من الازعـاج لاهلنـا. . وخطـرت لابي فكـرة، سرعـان ماقام بتنفيذها لحل المشكلة مضى الى المدينة، وعاد يحمل الينا كمية كبيـرة من كتب الاطفـال وقصصهم باللغة الانجليزية. . كان يريـد لنـا أن نقـرأ، ونتقـوى في هذه اللغـة ونستمتع بهـا، خاصـة وهـو لايعـرف منهـا كلمة واحدة. . وبدأنا نحاول القراءة. .

كانت الكتب جميلة. . جذابـة. . مشـوقة. . وأقبلنا عليها في لهفة شديدة ورغبة حقيقية. .

وبـدأت شخصيـا أحـاوّل القـراءة. . لكن سرعـان

مارحت أتعثر في كلمة لاأعرف معناها . . بعض هذه الكلمات استنتج معناه من السياق . . (ولعلكم تفعلون نفس الشيء الآن، خاصة حين واجهتكم كلمة «السياق» هذه، وهي تعني فهم الكلمة من خلال الاستمرار في القراءة، وكثيرا مايكون أستنتاج معناها معناه صحيحا) وعندما يتعذر علينا ـ اصدقائي وانا ـ فهم كلمة أو عبارة، كنا نحمل كتابنا ونتجول في كل القرية باحثين عن واحد ممن يعرفون الانجليزية لكي يساعدنا على فهم ماصعب علينا . . وكان عددهم قليلا، كما أن معرفتهم باللغة كانت متواضعة، ولاانسى ذلك اليوم الذي قال لنا واحد منهم . .

ـ لابد لكم من «قاموس»! «ديكشنري»!

ـ قاموس؟!! ماهو «القاموس»؟!

ونطق اسمه باللغة الانجليزية، وهويحاول أن يشرح لنا معنى الكلمة التي لم نكن قد سمعناها من قبل . . قال . .

ـ انه «كتاب» فيه كل الكلمات، ومعانيها . .

ففتحنا عيوننا في دهشة . . بل فتح بعضنا افواههم

في ذهول متسائلين.

ـ هل هناك كتاب فيه كل الكلمات؟! لابد انه ضخم جداً.. وحدثنا طويلا عن القواميس، وقال ان لدينا في لغتنا العربية عدة قواميس، ذكر منها اسم «المحيط» و «الوسيط» و «مختار الصحاح».. وقال ان بعضها ضخم جداً، للكبار، وأن هناك قواميس متوسطة صغيرة تصلح لنا، لانها مبسطة ونجد فيها المعاني في كلمات قليلة ومفهومة..

وسألناه عن القاموس مائة سؤال وسؤال.. وكان من الواضح انه من الصعب عليه ان يشرح لنا كل شيء عن القاموس دون ان نرى القاموس، ونتعامل معه ونتدرب على استخراج معاني الكلمات من صفحاته.. والحق أنه حاول يفهمنا كل شيء، وأر لنا على أن الكلمات موضوعة في القاموس بالترتيب الابجدي.. أي أ، ب، ت، ث الخ.. وان حرف الالف نفسه ترتب كلماته بنفس الطريقة.. أي أ، ب مثل أب، وابراهيم وتأتي بعد ذلك أت.. وهكذا..

وفتشنا كل مكتبات المتعلمين في قريتنا بحثا عن

قامــوس، فلم نجــد . . ليس لديهم قاموس لأن ثمنه مرتفـع، والـذي عنـده قاموس تركه في المدينة، انتظارا للعـودة الى الـدراسـة . . لذلـك اصبـح حلم اصدقائي وحلمي أن نحصل بأي شكل على «قاموس» خاص وقد كان بين الكتب روايـة من أجمـل روايـات المغـامـرات المثيرة التي احببناهـا كثيـرا، واردنـا أن نعرف احداثها بالتفصيـل . . لم نكن نريـد ان يفـوتنا حدث واحد مهما صغـر . . خاصـة والذين يعرفون الانجليزية ـ كما قلت ـ قليلون، ويختلفـون في تفسيـر معاني الكلمات اختلافا كبيـرا، بل أحيـانـا يدب بينهم الشجار، ويفسدون علينا متعة القراءة والفهم . .

ولست أذكر كيف أصبح عندنا «قاموس»، ربما بعث أبي بمن اشتـرى قامـوسـا . . أو استعـاره من مكتبـة «البلدية» ويمكن ان يكون قد عاد به واحد من الاصدقاء حين زار المـدينـة، لاأذكر بالضبط، لكن الذي لاانساه ذلـك الحفـل الـذي اقمنـاه احتفـالا بالحصـول على «القـامـوس» كان حفلا رائعا، يتفق مع روعة هذا الشيء الذي حصلنا عليه . . غنينا بكلمات عنه هتفنا، رقصنا،

صفقنـــا . . فعلنـا ذلـك بكـل جديـة . . لم تكن تهـزل ولاتضحك . . ضممناه يومها الى صدورنا قبلناه كان يوم عيد اذكره بكل دقائقه . .

وفـي اليــوم التـــالي بدأت ظهــر كل يوم حلقـــات القراءة . . وبجانبنا القاموس ومع كل منا قلم رصاص . . يقرأ، ويقرأ، واذا ماتعثر في كلمة صعبة كان عليه أن يعثر على معناهـا في القاموس ويسجله بحروف صغيرة على هامش الكتــاب . . كنـا نضعـه وسـط الحلقـة وتمتد اليه الأيادي في تقدير وتقديس . . ثم نعيده الى مكانه في رقة ورفق . . ولقد سهل علينا ويسر قراءة القصص الى درجة كبيـرة، ولن أنسى يوم قررت أن اعكف عليـه لاحفظ كل كلماته بمعانيها، لكن المعلم الذي نصحنا به، قال لي أن ذلك غير مفيد وان الكلمات تثبت معانيها خلال رحلة القراءة الطويلة . . وظللنا ننظر الى هذا القاموس على انه «كتاب مقدس» وقد وضعنا من حوله اوراق صحيفة كاملة لتحميه،

وكنـا نراقـب بعضنـا البعض حين نستخـدمـه ونـزجـر من لايحــافـظ عليـه أو يثنى ورقـة من أوراقـه، أو يحـذبهـا

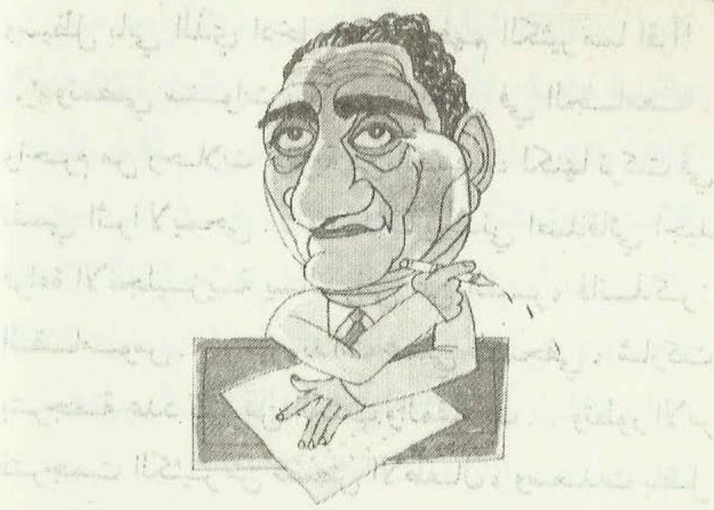
باصابعه خلال البحث عن كلمة . . وأحببنا القاموس كثيرا . . واذكر اننا لم نكن نعتبره ملكا لواحد منا . . كلنا ملكية عامة ، لنا جميعا وكان من يفوز بابقائه معه ليلة كاملة يشعر باعتزاز وفخر شديدين . . وقد نظمنا هذه الاستعارة بشكل يضمن ان نستفيد منه جميعا ، والطريف أنه لم يساعدنا على قراءة اللغة الانجليزية فحسب ، بل جعلنا نستمتع بالقراءة ذاتها ، وجعلنا نلتف حوله أغلب ساعات النهار ، لاوقت الظهيرة فحسب . لقد اصبحت القراءة متعة بفضلة .

ومازلت اذكر هذه القصة كلما امتدت يدي الى «القاموس» . . لقد اصبح عندي عشرات القواميس للغة العربية وللانجليزية تشرح الكلمة بالانجليزية ، وأخرى تقدم معناها بالعربية . . وقواميس تقدم معاني الكلمات العربية باللغة الانجليزية ونفس الشيء بالنسبة للغة الفرنسية . . اصبحت عندي عشرات القواميس يمتليء بها رف كامل في مكتبتي ، تمتد يدي إليها مرات خلال اليوم الواحد ، ودائما تحمل يدي القاموس في اكبار واعتزاز ، وتقلب اصابعي اوراقه في رقة و[illegible] ، وأعيده

الى مكـانـه في عنـايـة ورعاية كبيرين . . انه كان ومازال وسيظل بابي الذي ادخل منه الى فهم الكثير مما اقرأ!

وتمضي سنـوات، وانهي دراستي في الجـامعـة، واحـرم من رحـلات القرية في الصيف، لكنها تركت في نفسي اثـرا لا يمحى . . وعنـدمـا يجدني اصدقائي اجيد قراءة الانجليـزيـة يسألـونني عن السـر، فاتـذكـر: الـقـامـوس . . وحين بدأت عملي الصحفي، شاركت بتـرجمـة عدد كبير من الكتب والمقالات . . وتطور الامر فتـرجمت الكثيـر من قصص الاطفـال، وسعـدت بنقـل مسـرحيـة هانـزا اندرسون الشهيرة «الحذاء الاحمر» الى اللغـة العـربية ولـم اكن استشير صديقي «القاموس» كثير لأنه علمني من قبل كثيرا من معاني الكلمات!

مرحلة الدراسة الثانوية



والتحقت بمدرسة «الامير فاروق الثانوية» .. قرب نهر النيل، والنادي الرياضي، وحديقة عامة واسعة . وكانت المسافة بينها وبين بيوتنا اكثر من كيلومترين، وبدأت الدراسة فيها متأخرا بضعة ايام، حتى حصلت على نصف مجانية اذ كانت المصروفات فوق طاقتنا . . انها عشرة جنيهات في وقت كان ثمن البيضة فيه مليما! ، وبالطبع اذكر كل شيء عن مدرستي هذه، والمعلمين، وزملائي . . واجتزت سنواتي الخمس فيها بنجاح ودون تعثر . واجهتني صعوبات كاللغة الفرنسية لكنني كنت

اجتاز امتحاناتها . . بدأت معها في السنة الاولى ، وكان معلمها رجلا غريب الاطوار، يعشق الادب الفرنسي ، ومنه سمعت لاول مرة اسماء : فولتير ومونتيسكيو وروسو. . ولامارتين واناتول فرانس وبلزاك . . وتعرفت على المكتبة المدرسية ، وكانت رائعة ، ويعنى بها معلم عجوز واسع الخبرة والمعرفة ، لذلك كنا ننتظر حصة المكتبة بفروغ صبر . . ولم نكن نعرف ماذا نختار من كتب لنطالعها ، اذ كانت دائما فوق مستوانا ! . .

وكنت فوق الثانية عشرة بقليل حين تلقيت واحدا من اهم دروس الحياة . . ولم يكن من المعلمين ، ولا من داخل حجرات الدراسة ؛ لكنه كان عبر زميل يكبرني بعدة سنوات ويسبقني في الدراسة . . رأيته يلعب «الشطرنج» تحت شجرة باسقة قرب السور، وراء حجرات الدراسة ، وادهشني انه كان يكتب رموزاً في كراسة معه اثناء اللعب ، وسألته عما يفعل ، اجاب :

ـ اكتب الدور!

سألت: كيف تكتب «الحركات»؟

وبدأ يعلمني ان لرقعة الشطرنج خانات لكل منها

اسم ورقم، وشرح لي بالتفصيل معنى مايكتبه، وبهرني، وسألني بعد ذلك ان كنت اعرف اللعبة جيدا فجلست امامه اتبارى معه، واذا بي اكسبه، وتكرر فوزي عليه، الامر الذي دفعه لان يلقى بالكراس ويكف عن الكتابة، متعللا بها على انها وراء هزيمته، ومع ذلك انتصرت عليه!.. وذهل لذلك، فقد كان يقرأ بالانجليزية كتبا في الشطرنج وكان واحدا من المعدودين على اصابع يد واحدة من لاعبيه في المدينة، فكيف يفوز عليه طفل مبتديء؟!.. وعرفته بعد ذلك لاعبا ممتازا لكرة المائدة (البنج بونج) كما كان ماهرا بصورة خارقة في الالعاب السحرية، كما كان ممن يحاولون قراءة الكف وهو في كل ذلك يقرأ كتبا ضخمة بالانجليزية في كل ذلك، وقد لقنني ذلك الدرس الذي لم انسه عمري كله..

ان كل شيء في الدنيا، هناك كتب تتحدث عنه.. واذا ماأردت ان تبدع في امر فلابد لك وان تقرأ عنه الكثير..

اصبحت «صديقا» للمرحوم مصطفى كمال الذي

صار فيما بعد بطل مصر في الشطرنج . وبطلها في كرة المائدة . . وان تعثر في دراسته في كلية الاداب ـ قسم اللغة الانجليزية ، اذ شغلته هواياته عنها واضطر لان يقطعها ويلتحق بعمل صغير في مصلحة حكومية وظلت هواياته هي حياته بقية عمره . . وظللت على صلة حميمة به الى ان توفاه الله . . وقد مارست معه كافة هواياته وان كانت لم تستغرقني . . لعبت كرة المائدة ، ومارست الالعاب السحرية ، وتعرفت على القليل في مجال قراءة الكف . . وما اقتنعت بها!

وكنت قد كففت عن لعب الشطرنج عندما بدأت اهتماماتي الادبية . . وعندما اتيحت لي فرصة شراء مكتبة ضخمة من امريكي يغادر مصر كان بين كتبها نحو عشرين مجلدا ضخما في الشطرنج . . اقتنيتها وحملتها الى صديقي «مصطفى كمال» واهديتها اليه ، وهو لا يكاد يصدق ان هذا الكنز الثمين قد اصبح له . . وكنت اراها هدية بالغة التواضع ازاء الدرس الذي علمني اياه، والذي استثمرته في حياتي افضل استثمار، فما من عمل مارسته او هواية اجتذبتني إلاّ وقرأت عنها كتبا ، لا كتابا

واحدا، ولست أريد ان اذكر الكثير عما يجري داخل حجرات الدراسة من امور معتادة. . هناك معلمون، وطلاب، ودروس، ومشاغبات، وامتحانات. . وهناك لحظات حلوة في فناء المدرسة، والعاب، واحاديث ممتعة، ومتابعة لمباريات كرة القدم. . وهناك المطعم الذي نتناول فيه طعام الغذاء يوميا. . كانت سنوات تفتح مابين سن الثانية عشرة والسابعة عشرة، في كل يوم هناك جديد، ومبهر وممتع. . وقد اقبلنا على دروسنا بلهفة حقيقية، ورغبة في التعلم واستطعت وزملائي ان ننتقل في يسر من سنة الى اخرى بنجاح، وبدون ملاحق. . وذكريات هذه الفترة لايمكن حصرها، ولست ارغب في روايتها ان الجانب الاكبر منها كنت قد تجاوزت فيه مرحلة الطفولة، وان كانت سن المراهقة لقد لحقت بي وأنا انهي هذه المرحلة، ولم ننتبه لهذه السن اذ كانت عقولنا قد كبرت ونضجت واستطاعت ان تكبح جماح رغباتنا، وان تسدد على طريق الصواب خطواتنا.

وقد وقع حدث هام وانا في السنة الثانية من المرحلة الثانوية. . جاءنا مفتش اللغة العربية، وكان شيخا عنيفا

قاسيا، يدخل من باب المدرسة ليوجه كلماته الصارخة للجميع: من البواب الى ناظر المدرسة مرورا بالمدرسين والطلاب وقد نصحنا معلمنا بان نكون مهذبين صبورين عند قدومه، والا نرد عليه مهما كانت شتائمه، بل علينا تقبلها في هدوء..

ودخل علينا حجرة الدراسة دون ان يطرق الباب، واغلقه من خلفه بقوة،

ومضى بين الصفوف ليقف في مؤخرة الفصل يستمع للمدرس وهو يشرح، ثم اندفع الى السبورة، ولمحني اثناء مروره وقد وضعت ساقا على ساق، فصرخ في:

- كيف تضع ساقا على ساق وامامك والدك؟!.. واشار لنفسه وللمدرس!

ضحك زملائي ضحكا مكتوما، وتهامسوا حول كلمته واشارته، وهو يهتف بي:

- قف.. وقل انا آسف سبع مرات!

وقلتها في سرعة لم يرضى عنها، وطالبني بان أعيدها، وبين المرة والاخرى لحظة، كانت الضحكات المكتومة تعلو خلالها!!، ثم صرخ في:

ـ اجلس . .

والتفت الى المدرس، وسأله عن الكراسات الموضوعة على المنضدة، وعندما عرف انها كراسات الانشاد طلب من المدرس ان يختار كراسة منها ليقرأ منها صاحبها ـ . . . كي نعرف مستوى الفصل في الانشاد والمطالعة معا!

وكان المعلم يعرف كراستي ، اذ كنت اضعها في غلاف شفاف اخضر، فامتدت يده وجذبها، وقرأ اسمي لاقف بين الضحكات، قال المفتش :

ـ الم تجد سوى سيء الادب هذا؟ لابد ان ادبه كأدبه

وانفجر زملائي ضاحكين . . .

وبدأت أقرأ . . لكنه بعد قليل سألني ان اقرأ موضوعا آخر وعندما تلوت سطورا قصيرة، قال لي :

اقرأ الفهرس . .

وقرأت الفهرس ، وتوقف عند موضوع (الدعاية واثرها) وطلب مني ان اتلوه ورحت اقرأ . .

تخيل كاتب كبير ان الاسكندر المقدوني ، وخالد بن الوليد، ونابليون بونابرت بعثوا، وخيروا بين اسلحة

الحرب الحديثة فاختار الاسكندر الطائرات واختار خالد بن الوليد الدبابات اما نابليون فقد سكت طويلا قبل ان يقول:

- ان أخطر اسلحة الحرب الحديثة هي: جوبلز!

كان جوبلز وزير دعاية هتلر، وقد استطاع أن يصنع لنفسه اسما كبيرا في عالم الدعاية، وما ان نطقت اسمه حتى صاح بي المفتش:

- كفى..

والتفت الى المدرس وقال له:

- اختر لنا تلميذا من مستوى الفصل!

واشرأبت رقبتي، واعتدلت في وقفتي.. كان واضحا أني انتقمت لنفسي وانحنى المدرس عليه هامسا:

- هذا التلميذ ابن الشيخ يوسف احمد..

هتف المفتش: آه.. أن والدك صديقي.. سأقول له ان انشاءك جيد، وادبك سيء!!

وانهيت المرحلة الثانوية - مع نهاية الحرب العالمية الثانيه - وكنت مازلت أرتدي البنطلون القصير، والعب الكرة الشراب، واشعر بعاطفة جارفة نحو بنت الجيران.

وتلك قصة اخرى..

الفهرس

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

م. سرمد حاتم شكر السامرائي

شركة سومر للطباعة المحدودة هاتف: ٧١٩٩٧٤٣

دار ثقافة الاطفال

لوحة الغلاف للرسام عبد الرحيم ياسر

السعر (٥٠٠) فلس

رقم الايداع في دار الكتب و الوثائق (١٢١٤) لسنة ١٩٩٠

شركة سومر للطباعة المحدودة هاتف: ٧١٩٩٧٤٣